## النص السادس

قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٠].

يخبر الله تعالى عن بني إسرائيل الذين شغلوا مساحة كبيرة من القرآن الكريم كيف أنه فرقهم في الأرض كلها طوائف مشتتة ممزعة، فقال: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ وجاء ذلك في سياق مشاهد من حياة هؤلاء، وما أكرمهم الله به من حيث السقيا، فكان لكل سبط منهم عين تفجرت من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه، ومن تظليل الغمام، وإنزال المنّ وإرسال السلوى، وقد قابل الكثيرون منهم عطاء الله تعالى بالكفران، ومالوا إلى الشرك وعبدوا العجل، وحرفوا وبدلوا الكلم عن مواضعه، إلى آخر ما يتصل بسيرتهم مع أنبيائهم ومع الرسول الخاتم عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام. والحكمة بالغة من عرض سير الأقوام الذين سبقوا، منها أن تترفع الأمة الخاتمة وتحذر فلا تقع فيما وقع فيه من سبقها من الأمم التي انحرفت...

- والمقطع المختار هنا يراد منه بيان: لم جاء العدد ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ مؤنثاً؟ ولم جاءت كلمة ﴿أَسْباطاً﴾ جمعاً؟ وما أسرار ذلك؟

### ملاحظات حول كلمات النص

الأسباط: بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً، كما في تفسير ابن كثير عن أبي العالية والربيع وقتادة[1].

(١) ابن كثير ١/ ٤٤٩، دار طيبة للنشر، الطبعة الثانية.

وقال الخليل: الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل، أما الزمخشري فقال: الأسباط حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر، وقرره عنه الرازي.

وقال البخاري: "الأسباط: قبائل بني إسرائيل"، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط -هنا- شعوب بني إسرائيل، والسبط: الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد.

وقرر الألوسي أن الصواب أنه ليس المراد بهم أولاد يعقوب لصلبه، بل ذريته، كما يقال لهم بنو إسرائيل، يقال لسائر الناس بنو آدم. وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ صريح في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل، وكل سبط أمة، وأصل السبط كما قال أبو سعيد الضرير: شجرة واحدة ملتفة كثيرة الأغصان، فلا معنى لتسمية الأبناء الاثني عشر أسباطاً قبل أن ينتشر منهم الأولاد، قال: والصواب أنهم إنما سموا أسباطاً من زمن موسى عليه السلام، ومن حينئذ كانت فيهم النبوة، فإنه لم يعرف فيهم نبي قبله إلا يوسف عليه السلام[١].

وفي **ظلال القرآن**[٢]: رعاية الله تعالى مازالت تظلل موسى الكليم وقومه بعد أن كفروا فعبدوا العجل، ثم كفّروا عن الخطيئة كما أمرهم الله فتاب عليهم، وبعد أن طلبوا رؤية الله جهرة أخذتهم الصاعقة، ثم أحياهم الله استجابة لدعاء موسى، وتتجلى هذه الرعاية في تنظيمهم حسب فروعهم في اثنتي عشرة أمة، أي: جماعة كبيرة، ترجع كل جماعة منها إلى حفيد من حفدة يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام، كما بدت رعاية الله لهم في مظاهر أخرى تناولها كتاب الله، ولكن هذه الجبلة

---

(١) انظر: روح المعاني، الآية ١٦٠ من سورة الأعراف، والآية ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٥].

(٢) عند تفسير الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

ما تزال بعدُ عصيَّة على التقويم مع كل هذه الرعاية، عصية على الهدى والاستقامة كما تبدو من ختام الآية التي عددت مجموعة من النعم أحيطوا بها، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾. وقد عرض السياق نماذج من ظلمهم حيث عصوا وحادوا عن طريق النبوة، ونافلة على ما تقدم نذكر قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٧] فقد أشار بقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ أنهم لن يخرجوا عما هم عليه من اعوجاج يحتاج إلى تقويم، وشذوذ يتطلب تأديباً، وقد ضمن فعل ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ معنى التسليط مع مجيئه بصيغة القسم دل عليه مجيء اللام الواقعة في جواب القسم، تأكيداً لمعناه، وقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ غاية لما في القسم من معنى الاستقبال، وهي غاية مقصود منها جعل أزمنة المستقبل كله ظرفاً للبعث، أي: إن الله يسلط عليهم ذلك في خلال المستقبل كله، ويسومهم: أي يفرض عليهم، والآية كما ترى تشير إلى وعيد الله إياهم بأن يسلط عليهم عدوهم كلما نقضوا ميثاق الله، وقد تكرر هذا الوعيد من عهد موسى عليه السلام، حيث جاء في سفر التثنية: «ويبددك الله في جميع الشعوب، وفي تلك الأمم لا تطمئن وترتعب ليلاً ونهاراً، ولا تأمن على حياتك»، وفي سفر يوشع: «اعلموا يقيناً أن الله يجعلهم - أي الشعوب- لكم سوطاً على جنوبكم، وشوكاً في أعينكم، حتى تبيدوا حينما تتعدون عهد الرب إلهكم». وأعظم الوصايا هي العهد باتباع الرسول الذي يرسل إليهم[1].

﴿وَقَطَّعْناهُمُ﴾ يقرأ مشدداً، وهو المتواتر، ومخففاً، قطَّع وقطع، ويتعدى لواحد، وقد يضمّن معنى (صيَّر) فيتعدى لاثنين.

(١) انظر: التحرير والتنوير، الآية ١٦٧ من سورة الأعراف.

قال **النسفي** في تفسيره: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ وصيرناهم قطعاً، أي: فرقاً، وميزنا بعضهم من بعض.

وفي **المحرر الوجيز**[١] قال القاضي أبو محمد: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ فرقناهم، من القطع، والتقطيع شدة في القطع، وهو التفريق، والمراد به التقسيم، وقال في المحرر: وليس المراد بهذا الخبر الذم، ولا بالتقطيع العقاب، لأن ذلك التقطيع منة عليهم من الله، وهو من محاسن سياسة الشريعة الموسوية، ومن مقدمات نظام الجماعة، وهو نظير ما فعله عمر رضي الله عنه من تدوين الدواوين، وكان التقسيم بعد اجتيازهم البحر الأحمر، وقبل انفجار العيون، وهو ظاهر القرآن، حيث قال: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، وذكره الاستسقاء عقب الانقسام إلى اثنتي عشرة أمة[٢].

وقال عند الآية ١٦٨ من سورة الأعراف: قوله تعالى ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ عطف قصة على قصة، وهو عود إلى قصص الإخبار عن أحوالهم، فيجوز أن يكون الكلام إشارة إلى تفريقهم بعد الاجتماع، والتقطيع التفريق، فيكون محموداً، مثل قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً﴾، ويكون مذموماً، فالتعويل على النوعية، لا على لفظ التقطيع، والمراد من الأرض الجنس، أي: في أقطار الأرض.

وفي **الكشاف**[٣]: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ صيرناهم قطعاً، أي: فرقاً، وميزنا بعضهم من بعض لقلة الألفة بينهم.

وفيه قال الزمخشري: "إن قلت: هلا قيل اثني عشر سبطاً؟ قلت: لو

---

(١) تفسير الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

(٢) التحرير والتنوير، عند تفسير الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

(٣) انظر: تفسير الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

قيل ذلك لم يكن تحقيقاً، لأن المراد: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط، لا سبط، فوضع أسباطاً موضع قبيلة، و﴿أُمَماً﴾ بدل من ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ بمعنى: وقطعناهم أمماً، لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة، وجماعة كثيفة العدد، وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤم الأولى لا تكاد تأتلف".

قال **النسفي**[1]: و﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً﴾ كقولك: "اثنتي عشرة قبيلة"، والأسباط أولاد الولد، جمع سبط، نعم مميز ما عدا العشرة مفرد، فكان ينبغي أن يقال: اثني عشر سبطاً، لكن المراد: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط، لا سبط، فوضع ﴿أَسْباطاً﴾ موضع (قبيلة) ثم ﴿أُمَماً﴾ بدل من اثنتي عشرة؛ وقطعناهم أمماً، لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة.

وقال **ابن الحاجب**: اثنتي عشرة أمة يتميز بعضها عن بعض، وقوله: ﴿أَسْباطاً﴾ بدل من العدد، لا تمييز له، وعليه فالتمييز محذوف، أي: فرقة. قال الحوفي: إن صفة التمييز أقيمت مقامه، والأصل: فرقة أسباطاً، وجوز أن يكون تمييزاً، لأنه مفرد تأويلاً، فقد ذكروا أن السبط مفرد ولد الولد أو ولد البنت أو الولد أو القطعة من الشيء، أقوال ذكرها ابن الأثير، ثم استعمل في كل جماعة من بني إسرائيل كالقبيلة في العرب، ولعله تسمية لهم باسم أصلهم كتميم، وقد يطلق على كل قبيلة منهم أسباطاً أيضاً كما غلب (الأنصار) على جمع مخصوص، فهو حينئذ بمعنى الحي والقبيلة، فلهذا وقع موقع المفرد في التمييز، وهذا كما ثني الجمع، ثم تأنيث ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ مع أن المعدود مذكر، وما قبل الثلاثة يجري على أصل التأنيث والتذكير، لتأويل ذلك بمؤنث.

---

(١) عند تفسير الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿أُمَماً﴾ بدل بعد البدل، من ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ لا من ﴿أَسْباطاً﴾ على تقدير أن يكون بدلاً، لأنه لا يبدل من البدل[١].

قال في **المحرر**: قوله: ﴿أَسْباطاً﴾، بدل من ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾، والتمييز الذي بيّن العدد محذوف مقدر؛ اثنتي عشرة فرقة، أو قطعة أسباطاً، ولا يجوز أن يكون (أسباطاً) تمييزاً، لأن التمييز لا يكون إلا مفرداً نكرة، وأيضاً فالسبط مذكر، وهو قد عد مؤنثاً، على أن هذه العلة لو انفردت لمنعت، إذ السبط بمعنى الأمة، وقال بعض الكوفيين: لما كان السبط بمعنى الأمة غلب التأنيث. وهو مثل قول الشاعر:

**فإن كلاباً هذه عشرأبطن وأنت بريء من قبائلها العشر**[٢]

فقد ذهب بالبطن إلى القبيلة.

وقال **الطبري**: والصواب عندي أن تأنيث العدد لتأنيث قطعة، أي: (وقطعناهم قطعاً)... ثم ترجم عن القطع بالأسباط، فالأسباط على هذا ليست تفسيراً للعدد.

وذهب القرطبي إلى أن التأنيث للأمم، نقله عن الفراء، أو أراد بالأسباط القبائل والفرق، فالمعدود (فرقة) وأسباط بدل من العدد، و(أمماً) نعت للأسباط، فالعدد يدل على أن المعدود مؤنث... وأسباطاً نعت لفرقة، ثم حذف الموصوف فرقة، وأقيمت الصفة مقامه، وقد جاء في شعر عنترة وصف التمييز المفرد بالجمع مراعاة للمعنى حيث قال:

**فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الغراب الأسحم**[٣]

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي عند الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

(٢) أبطن: جمع بطن، وهنا على معنى قبيلة، وإن كان البطن دون القبيلة، أو دون الفخذ وفوق العمارة، وأبطن من الثلاثة إلى العشرة، والبطن من الإنسان خلاف الظهر، ويذكر، والتأنيث فيه لغة.

(٣) حلوبة: ناقة تحلب، ذات لبن، وتجمع على حلائب. الخافية: جمعها الخوافي؛ =

فإنه قال: (سوداً) ولم يقل (سوداء).

قوله: ﴿أَسْباطاً﴾ بدل كل من كل، وليس تمييزاً، والتمييز محذوف مقدر كما مر، وساغ حذفه لدلالة الفعل (وقطعناهم)، وقوله: ﴿أُمَماً﴾ وصف لأسباط، رجح حكم التأنيث في قوله أسباطاً، وذهب الفراء إلى جواز جمع التمييز، وظاهر الآية يشهد له، وأنت ترى هنا أنه ردنا إلى مصدر القاعدة وهو القرآن الكريم، وهو الحاكم في اللغة وعليها...

= هي ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت، وقال اللحياني: هي الريشات الأربع اللواتي بعد المناكب، وتكون بعد المقدمات من الريش. الأسحم: السحمة السواد، وكل أسود أسحم، وهي: سحماء.

# النص السابع

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٢٠/ ٦٣].

## المعنى العام

في زاد المسير[١]: قال تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾، قد تنازع السحرة فيما بينهم في أمر موسى عليه السلام، وتشاوروا وأسروا النجوى، أي: أخفوا كلامهم من فرعون وقومه، أو من موسى وهارون... ومضمون ما قالوه: إن كان هذا ساحراً فإنا سنغلبه، وإن يكن من السماء فله أمره، قاله قتادة. وقال الضحاك ومقاتل: لما سمعوا كلام موسى قالوا: ما هذا بقول ساحر، ولكن هذا كلام الرب الأعلى، فعرفوا الحق، ثم نظروا إلى فرعون وسلطانه، وإلى موسى وعصاه، فنكسوا على رؤوسهم وقالوا: ﴿إِنْ هَذانِ لَساحِرانِ﴾ والنجوى على هذا - كما قال السدي - قولهم: ﴿إِنْ هَذانِ لَساحِرانِ﴾.

وفي الكشاف[٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن نجواهم: إن غلبَنا موسى اتبعناه، وعن قتادة: إن كان ساحراً فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر، وقد ذكرناه عن زاد المسير. وقال الزمخشري: الظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجاذبوا أهداب القول، ثم قالوا: إن هذان لساحران، فكانت

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي، عند الآية ٦٢ - ٦٣ من سورة طه.

(٢) الكشاف للزمخشري، عند تفسير الآية ٦٢ من سورة طه.

نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفاً من غلبتهما وتثبيطاً للناس عن اتباعهما.

وعلى ما تقدم نجد أن النجوى التي أسروها هي: إن كان ما جاء به سحراً فسنغلبه، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر، أو النجوى هي قولهم: إن هذان لساحران، أو: إن غلبنا اتبعناه، ودليله ما ظهر من عاقبة أمرهم، وقيل: كان سرهم أن قالوا حين قال لهم موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه: ٢٠/ ٦١] قالوا: ما هذا بقول ساحر.

## الإعراب من الجدول[1]

إن: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، ويجوز أن تكون مهملة (للتوكيد)، أو هي نافية، واللام في (لساحران) بمعنى (إلا) قالوا: وفيه بعد.

هذان: الها للتنبيه، و(ذان) مبتدأ في محل رفع مبني على الألف.

لساحران: اللام: لام الابتداء، أو: هي اللام الفارقة التي تشعر بكون (إن) مخففة، أو هي بمعنى (إلا) كما تقدم، ومعلوم أن لام الابتداء للتوكيد، وتكون مع المبتدأ، وهي التي تزحلق منه إلى الخبر حين يؤكد المبتدأ بمؤكد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾، وساحران: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره (هما).

قالوا: جملة (قالوا) استئناف بياني، لا محل لها.

وجملة (إن هذان لساحران) في محل نصب مقول القول.

وجملة (هذان لساحران) في محل رفع خبر (إن) المخففة.

وجملة (هما ساحران) في محل رفع خبر المبتدأ (هذان).

---

(١) ١٦/ ٣١٥.

## ما وجه الإشكال في الآية الكريمة؟

إن منشأ الإشكال في الآية أن الاسم المثنى يعرب في حالة النصب والخفض بالياء، وفي حالة الرفع بالألف، وهذا متواتر من لغة العرب لغة القرآن، وفي الأسماء المبنية، قال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾، وقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ [النساء: ٤/ ١١]، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٥/ ٦]، وهنا قال: الكعبين ولم يقل الكعبان، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ [يس: ٣٦/ ١٤]، ولم يقل اثنان، وقال تعالى: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ١١/ ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٤٩]، ولم يقل زوجان. ومثل هذا كثير مشهور في القرآن وغيره.

من هنا كان الإشكال في ﴿إِنْ هَذانِ لَساحِرانِ﴾.

قال ابن تيمية[١]: هذا مما أشكل على كثير من الناس، فإنّ الذي في مصاحف المسلمين (إن هذان) بالألف، وبهذا قرأ جمهور القراء، وأكثرهم يقرأ (إنّ) مشددة، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم (إن) مخففة. هذا وقد ظن النحاة أنّ الأسماء المبهمة المبنية كهذا والذي، تجرى في التثنية مجرى الأسماء المثناة التي ترفع بالألف في حالة الرفع، والمبني كذلك في حالة الرفع يكون بالألف[٢].

وقد قرأ أبو عمرو - وهو إمام في العربية - قرأ بما يعرف من العربية: ﴿إِنّ هَذينِ لَساحِرانِ﴾ وذكر أن له سلفاً في هذه القراءة، والظن به أنه لا يقرأ إلا بما يرويه لا بمجرد ما يراه... وقد احتج كثير من النحاة للقراءة

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٤١٣.

(٢) انظر: المجموع لابن تيمية ٣/ ٤١٤، تفسير سورة طه.

المشهورة الموافقة لرسم المصحف، وقالوا: هذه لغة بني الحارث بن كعب.

## القراءة وتوجيهها

قرأ أبو عمرو: ﴿إِنّ هَذينِ لَساحِرانِ﴾ على الجهة الظاهرة المكشوفة، وإعمال (إنّ) الناصبة، وهذه القراءة موافقة للإعراب، أي: القريب الشائع، وإلا فلغة بلحارث نص في الجواز.

وقرأ ابن كثير وحفص: ﴿إِنْ هَذانِ لَساحِرانِ﴾ كما تقول: إن زيد لمنطلق، واللام في (لساحران) هي الفارقة بين (إن) النافية، و(إن) المخففة من الثقيلة.

وقرأ الزهري والخليل والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم في رواية حفص عنه ﴿إِنْ هَذانِ﴾ تخفيف (إن) وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف، ويكون معناها (ما هذان إلا ساحران) فـ(إن) فيها بمعنى (ما) واللام بمعنى إلا. والإجماع على أنه لم يكن أحد أعلم بالنحو من الخليل.

وقرأ المدنيون والكوفيون ﴿إِنّ هَذانِ لَساحِرانِ﴾ بتشديد (إنّ) فوافقوا المصحف، وخالفوا الإعراب[1].

وقرأ أبو عمرو ﴿إن هذين..﴾ كما مر، ورويت عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة، وكذلك قرأ الحسن وابن جبير والنخعي وغيرهم من التابعين، ومن القراء عيسى بن عمر وعاصم الجحدري فيما ذكر النحاس، وقال القرطبي: وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة للمصحف، وقال النحاس: فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١١/ ٢٣٦.

وما جاء من قراءات أخرى تروى فمحمولة على التفسير، لا أنها جائز أن يقرأ بها؛ لمخالفتها المصحف. وقد جاءت عن العلماء تعليلات نسرد أهمها:

بداية؛ إنّ الصحابة لابد أنهم قد قرؤوا هذا الحرف بالألف ﴿هَذانِ﴾ كما قرأ مِنْ بعدهم الجمهور، وكان الصحابة بمكة والمدينة والشام والكوفة والبصرة يقرؤون هذه السورة في الصلاة وخارج الصلاة، ومنهم سمعها التابعون، ومن التابعين سمعها تابعوهم، فيمتنع أن يكون الصحابة كلهم قرؤوها بالياء أي ﴿هذين﴾، مع أن جمهور القراء لم يقرؤوها إلا بالألف ﴿هَذانِ﴾، وهم قد أخذوا قراءتهم عن الصحابة أو عن التابعين عن الصحابة، فهذا مما يعلم به قطعاً أن عامة الصحابة إنما قرؤوها بالألف ﴿هَذانِ﴾، وكما هو مكتوب، وحينئذ فقد عُلِمَ أن الصحابة إنما قرؤوا كما علمهم الرسول، وكما هو لغة العرب، ثم لغة قريش، فعلم أن هذه اللغة الفصيحة معروفة عندهم في الأسماء المبهمة، كأسماء الإشارة والموصولة، تقول: إنّ هذان ومررت بهذان.

وقد قال **الفراء**[١]: ألف التثنية في ﴿هَذانِ﴾ هي ألف (هذا)، والنون فرقت بين الواحد والاثنين كما فرقت النون بين الواحد والجمع في (الذين) مفرده (الذي)، وحكاه المهدوي وغيره من القراء، وعليه؛ فالألف -هنا- ليست علامة التثنية، بل هي ألف (هذا) فزدت عليها (نوناً) ولم تغيرها، كما زدت (النون) على (الذي) فقلت (الذين).

قال **الطبري**[٢]: و﴿هَذانِ﴾ بالألف، لإجماع الحجة من القراء عليه، وأنه كذلك هو في خط المصحف، ووجهه إذا قرئ كذلك مشابهة

(١) انظر: المجموع لابن تيمية ٣/ ٤٢٠.
(٢) انظر: تفسير الطبري، للآية ٦٢ من سورة طه.

(الذين)؛ إذ زادوا على (الذي) نوناً، وأقر في جميع الأحوال الإعراب على حالة واحدة، فكذلك ﴿إِنْ هَذانِ﴾ زيدت على (هذا) النون، وأقر في جميع الأحوال الإعراب على حالة واحدة، وهي لغة الحارث بن كعب وختم وزبيد ومن وليهم من قبائل اليمن، وقال السيوطي في الإتقان: جاز على لغة من يجري المثنى بالألف في الأحوال الثلاثة، وهي لغة مشهورة لكنانة أو لبني الحارث، أو على أن اسم (إن) في الآية الكريمة ضمير الشأن محذوفاً، والجملة بعد (إن) مبتدأ وخبر، و﴿لَساحِرانِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف والتقدير (لهما ساحران). ويمكن أن يستشف من هذا أن العبارة تشف عما كانت عليه بواطن القوم من جراء نعت موسى وهارون عليهما السلام بالسحر، وربما حكت الظواهر ما اختبأ في البواطن، وقد وصف الله تعالى الوليد بن المغيرة حين طُلِب منه أن يتخذ موقفاً من القرآن بعدما أسرَتْه روعته، وخاف عليه فرعون الأمة أبو جهل أن يسلم بأنه: ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ وهاتان الصفتان في إطار التفكير تكشفان عما يمور به الصدر من كراهية وإكراه.

وقيل في القراءة المشهورة ﴿إِنْ هَذانِ لَساحِرانِ﴾: هي لغة بلحارث بن كعب، وقد جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها ألف، كعصا وسلوى، فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب.

روى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هي لغة بلحارث بن كعب، وقال ابن الأنباري: هي لغة بني الحارث بن كعب، ووافقتها لغة قريش، وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب- وهو رأس من رؤوس الرواة- أنها لغة لكنانة، يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد، يقولون: أتاني الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان. ولا يعني تبنينا لنهج من يجعل الياء علامة نصب وخفض للمثنى أن لغة هؤلاء لحن!

وقال بعض نحويي الكوفة: ذلك على وجهين: أحدهما على لغة بني الحارث بن كعب ومن جاورهم، يجعلون الاثنين في رفعهما ونصبهما وخفضهما بالألف، وقد أنشد رجل من الأسد عن بعض بني الحارث بن كعب قوله:

**فأطرق إطراق الشجاع ولو رأى مساغاً لناباه الشجاع لصمما**[1]

قال **الفراء**: ذلك وإن كان قليلاً أقيس، لأن العرب قالوا: "مسلمون"، فجعلوا الواو تابعة للضمة، لأنها لا تعرب، ثم قالوا: "رأيت المسلمين"، فجعلوا الياء تابعة لكسرة الميم، فلما رأوا (الياء) من الاثنين لا يمكنهم كسر ما قبلها، وثبت مفتوحاً، تركوا الألف تتبعه[2].

قال **القرطبي**: وهذه اللغة معروفة، وقد حكاها من يرتضى بعلمه وأمانته، ومنهم أبو زيد الأنصاري، وهو الذي يقول: إذا قال سيبويه حدثني من أثق به، فإنما يعنيني، وكذلك الأخفش، وهو رئيس من رؤساء اللغة، والكسائي والفراء، وكلهم قالوا: هذا على لغة بني الحارث.

---

(١) البيت للمتلمس جرير بن عبد العزى، وقيل: جرير بن عبد المسيح، من كلمة رواها ابن الشجري. قال: أطرق: سكت فلم يتكلم، وأرخى عينيه ينظر إلى الأرض. الشجاع: ضرب من الحيات لطيف دقيق وهو أجرؤها، أو هو الحية العظيمة تثب على الفارس والراجل وتقوم على ذنبها، وربما بلغت رأس الفارس، وتكون في الصحارى. مساغاً: اسم مكان من ساغ يسوغ: إذا دخل ونفذ. وصمما: عض بنابه فلم يرسل ما عض.

والبيت جار على لغة بني الحارث بن كعب ومن لف لفهم، والشاهد فيه أن قوله: (لناباه) مثنى مجرور باللام، وقد جاء بالألف، وهي لغة بني الحارث بن كعب وبني الغبر وبني الهجيم وبطون من ربيعة وبكر بن وائل، وزبيد وخثعم وهمدان وغدرة، ويخرج بعض النحويين على هذه اللغة قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ وقوله ﷺ: «لا وتران في ليلة».

(٢) انظر: تفسير الطبري عند قوله: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٢٠/ ٦٣].

وحكى أبو الخطاب أنها لغة بني كنانة، وحكى غيره أنها لغة خثعم، ومثله قول الشاعر:

**تـزود مـنـا بـين أذنـاه ضربـة دعته إلى هابي التراب عقيم**[١]

وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب ذلك، وقال: كنانة يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد، ويقول هؤلاء: ضربته بين أذناه. وقال الشاعر:

**إن أبـاهـا وأبـا أبـاهـا قد بلغا في المجد غايتاها**[٢]

حيث إن (أباها) الثانية وقعت مضافاً إلى (أبا)، وحق المضاف إليه أن يكون مجروراً، ويكون الجر هنا بالياء لأن الكلمة من الأسماء الخمسة، وقد أبقاها الشاعر بالألف على النهج المذكور، وكذلك قوله (غايتاها) مثنى غاية، والمثنى هنا وقع مفعولاً به منصوباً، والمنصوب المثنى تكون الياء علامته، ولكن الشاعر أيضاً أبقى الألف.

وفي **التفسير الوجيز** للواحدي: سأل إسماعيل القاضي ابن كيسان عن هذه المسألة فقال: لما لم يظهر في المبهم إعراب في الواحد، ولا في الجمع - أي: في قولهم: هذا وهؤلاء؛ إذ هما مبنيان - جرت التثنية مجرى الواحد إذ التثنية يجب ألَّا تتغير، فقال له إسماعيل: ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول فيه حتى يؤنس به، فقال له ابن كيسان: فليقل به القاضي حتى يؤنس به، فتبسم.

وفي **مجموع الفتاوى** لابن تيمية[٣] قال: أما قوله: ﴿إِنْ هَـٰذَانِ

(١) هناك رواية تزود بين أذناه طعنة، والتي في لسان العرب (ضربة) بدلاً من (طعنة)، والهابي: من التراب ما ارتفع ودق.

(٢) الغاية: مدى كل شيء أو أقصاه، وغاية الحرب: رايتها.

(٣) ١٥/ ٢٦٢، تفسير سورة طه.

لَساحِرانِ﴾ فجاء اسماً مبتدأ، اسم (إن) وكان مجيئه بالألف أحسن في اللفظ من قولنا (إن هذين لساحران) لأن الألف أخف من الياء، ولأن الخبر بالألف، فإذا كان كل من الاسم والخبر بالألف كان أتم مناسبة، وهذا معنى صحيح، وليس في القرآن ما يشبه هذا من كل وجه وهو بالياء.. فتبين أن هذا المسموع والمتواتر ليس في القياس الصحيح ما يناقضه.

وقال النحويون القدماء في قوله: ﴿إِنْ هَذانِ لَساحِرانِ﴾ ههنا (هاء) مضمرة، المعنى: إنه هذان... وقالوا أيضاً: (إن) بمعنى (نعم)، وساحران خبر مبتدأ محذوف، واللام داخلة على الجملة، تقديره (لهما ساحران) وقد أعجب بهذا التوجيه أبو إسحاق. وعليه، فقوله: ﴿إِنْ هَذانِ لَساحِرانِ﴾ بمعنى: نعم هذان لساحران، وينشدون:

**ويقلن شيب قد علاك وقد كبرت فقلت إنه**[1]

هذا، وقد ورد أن عبد الله بن الزبير استجداه أعرابي، فلم يعطه، فقال الأعرابي: لعن الله ناقة حملتني إليك! قال ابن الزبير له: إن وراكبها، أي: نعم بالنسبة للعنة، وألحقها براكب الناقة، وهو الأعرابي.

وقد حكى الكسائي عن عاصم استعمال العرب لإن على معنى نعم، فقال: إن العرب تأتي بإن بمعنى نعم، وحكى سيبويه أن (إن) تأتي بمعنى (أجل)، وذهب إلى هذا جمع منهم محمد بن زيد وإسماعيل بن إسحاق القاضي، وقال النحاس: ورأيت أبا إسحاق الزجاج وعلي بن سليمان يذهبان إليه، وعن علي ﷺ قال: لا أحصي كم سمعت رسول الله ﷺ، على منبره يقول: "إن الحمدُ لله"، ثم يقول: "أنا أفصح قريش كلها، وأفصحها بعدي أبان بن سعيد بن العاص". وقال عمير: إعرابه - أي

(١) قوله: إن: أي: أجل أو نعم، والهاء في البيت هاء السكت، والشاعر هو عبد الله بن قيس الرقيات.

(الحمد) - عند أهل اللغة والنحو بالنصب، إلا أن العرب تجعل (إن) في معنى (نعم)، فكأنه أراد ﷺ "نعم الحمد لله"، وذلك أن خطباء الجاهلية المصاقع[١] كانت تفتتح في خطبها بـ(نعم)، قال الشاعر:

**قالوا غدرت فقلت إنّ وربما نال العلا وشفى الغليل الغادر**[٢]

وقال ابن قيس الرقيات:

**بكر العواذل في الصباح يلمنني وألومهنه**
**ويقلن شيب قد علاك وقد كبرت فقلت إنه**[٣]

وهذا التوجيه من مبتكرات أبي إسحاق الذي جاء ذكره في تفسيره، وقال: عرضته على عالمينا وشيخينا وأستاذينا محمد بن يزيد (أي المبرد) وإسماعيل بن إسحاق بن حماد (أي القاضي الشهير) فقبلاه، وذكرا أنه أجود ما سمعناه في هذه، وقال صاحب المحرر الوجيز بعدما ساق هذا: لقد صدقا وحققا، والتوجيه هو أن (إن) قد وقعت موقع نعم ويلي هذا في الجواب مذهب ابن كنانة، واستحسن هذه القراءة الزجاج، لأنها مذهب أكثر القراء، وبها يقرأ واستحسن قراءة عاصم والخليل، لأنهما إمامان، ولأنهما وافقا أبي بن كعب في المعنى، وحكى ابن الأنباري عن الفراء قال: ألف (هذان) هي ألف (هذا) والنون فرقت بين الواحد والتثنية.. كما مر سابقاً، وأما قراءة عاصم، فمعناها (ما هذان إلا ساحران) كقوله

---

(١) المصاقع: جمع مصقع، وهو الخطيب إذا كان بليغاً، سمي بذلك لجهارة صوته.

(٢) شفى: أبرأ، والغليل: شدة العطش وحرارته قل أو كثر. الغادر: من لا عهد له، وضده: الوفي.

(٣) رقيات: جمع رقية، وهو اسم امرأة، أضيف قيس لهن لكونه تزوج عدداً من النساء كل واحدة منهن بهذا الاسم، أو لأن له جدات، كل واحدة منهن بهذا الاسم، أو لأنه شبب بعدة نسوة كلهن يحملن هذا الاسم. والعواذل جمع عاذلة، والعذل: اللوم والإحراق، فكأن اللائم يحرق بعذله قلب المعذول.

تعالى: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/١٨٦]؛ أي: ما نظنك إلا من الكاذبين، وأنشدوا لذلك قول الشاعر:

**ثكلتك أمك إن قتلت لمسلماً حلت عليك عقوبة المتعمد**(١)

قال النحاس: أنشدني داوود بن الهيثم، قال: أنشدني ثعلب:

**ليت شعري هل للمحب شفاء من جوى حبهن إنّ اللقاء**(٢)

ويضيف السيوطي بأن (إنّ) تأتي بمعنى: نعم، أو أن ألف ﴿هَٰذَانِ﴾ جاءت لمتابعة ألف ﴿لَساحِرانِ﴾ وألف ﴿يُرِيدانِ﴾ الفعل الذي جاء في الآية الكريمة.

كما ترى هي توجيهات للنص، منها ما يدخل دون استئذان لقوته، ومنها ما يدل على سعة اللغة، وتعدد الأوجه فيها، وتغطية القرآن الكريم لكثير من اللهجات الظاهرة السائغة، وثمة روايات تشير في مسائل ابن الأزرق وأجوبة ابن عباس رضي الله عنهما إلى استشهاد حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس باللغة في تفسير القرآن الكريم، ومن هذه الأسئلة قال نافع: فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٣٧] قال: العزون حلق الرفاق، قال: هل تعرف العرب ذلك ؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص يقول:

**فجاؤوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا**(٣)؟

وإضافة تميط عن الصدر الغبش، قال النحاس: ومن أبين ما في هذا قول سيبويه: واعلم أنك إذا ثنيت الواحد زدت عليه زائدتين، الأولى فيها

---

(١) أي: ما قتلت إلا مسلماً.

(٢) الجوى: الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن، وقد بين للسائل أن اللقاء هو الشفاء، فقوله إن اللقاء أي: نعم اللقاء هو الشفاء.

(٣) يهرعون: الهرع: شدة السوق وسرعة العدو، وأهرع الرجل: أرعد من سرعة أو خوف أو حر أو غضب أو حمى، وعزين: جماعات.

حرف مد ولين، وهو حرف الإعراب. قال أبو جعفر: فقوله - أي سيبويه-: "وهو حرف الإعراب"، يوجب أن الأصل ألا يتغير، فيكون: ﴿إن هذان﴾ جاء على أصله ليعلم ذلك، وقد قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ [المجادلة: ١٩/٥٨] ولم يقل (استحاذ)[١] فجاء هذا ليدل على الأصل، وكذلك ﴿إِنْ هَذانِ﴾ هنا، ولا يلتفت إلى إنكار من أنكر هذه اللغة إذا كان الأئمة قد رووها.

مر معنا أن أبا عمرو قرأ ﴿إنّ هذين..﴾ وقد احتج على ما خالف به المصحف بما روي عن عثمان وعائشة ﵄؛ حيث نسب إليهما أن ثمة خطأ وقع فيه الكاتب عند النسخ، وقد عالجنا هذا المروي فيما سبق، ونضيف -هنا- ما قاله صاحب التحرير والتنوير[٢]، بعدما ساق ما روي: ".. وهذه أوهام وأخبار لم تصح عن الذين نسبت إليهم، ومن البعيد جداً أن يخطئ كاتب المصحف في كلمة بين أخواتها، فيفردها بالخطأ دون سابقتها أو تابعتها، وأبعد منه أن يجيء الخطأ في طائفة متماثلة من الكلمات، وهي التي إعرابها بالحروف النائبة عن حركات الإعراب من المثنى والجمع على حدة، ولا أحسب ما روي عن عائشة وأبان بن عثمان في ذلك صحيحاً".

وقال في **الكشاف**[٣]: وهم كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله كلمة ليسدها من بعدهم، وخرقاً يرفوه من يلحق بهم... ثم قال: وقدم النظير عند قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧].

هذا، وقد ورد في الصحيح عن عثمان ﵁ أنه قال: إن القرآن نزل

---

(١) استحوذ على كذا: حواه وضمه إليه، أمر محوذ مضموم محكم.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير، الآية ١٦٢ من سورة النساء.

(٣) انظر: تفسير الكشاف، عند قوله تعالى الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

بلغة قريش، وقال للرهط القرشيين الذين كتبوا المصحف هم وزيد: إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم. ولم يختلفوا إلا في حرف، وهو ﴿التّابُوتِ﴾ فرفعوه إلى عثمان، فأمر أن يكتب بلغة قريش[١].

كذلك لما جاء حذيفة بن اليمان إلى الخليفة عثمان ذي النورين وكان يغازي مع أهل الشام وأهل العراق في فتح أرمينية وأذربيجان، وقال: يا أمير المؤمنين ! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسلَ إلى حفصة أم المؤمنين ﵂ أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها إليه، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال لهم عثمان ما نقلناه آنفاً: إذا اختلفتم.....

ومما يبين كذب من ادعى الخطأ، وأن عثمان وقف عليه ولم يغيره، أن الخطأ لو قدر فإنما يكون في نسخة واحدة، فأما أن تكون جميع المصاحف اتفقت على الغلط، وعثمان قد رآه في جميعها وسكت، فهذا ممتنع عادة وشرعاً من الذين كتبوا ومن عثمان، ثم من المسلمين الذين وصلت إليهم المصاحف، ورأوا ما فيها، وهم يحفظون القرآن عن ظهر قلب، ويعلمون أن فيه لحناً لا يجوز في اللغة فضلاً عن التلاوة، وكلهم يقر هذا المنكر، لا يغيره أحد، فهذا مما يعلم بطلانه عادة، ويعلم من دين القوم الذين لا يجتمعون على ضلالة، بل يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولو قيل لعثمان: مر الكاتب أن يغيره -لو كان- لكان تغييره من أسهل الأشياء عليه[٢].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٣/ ٤١٨، عند تفسير سورة طه الآية ٦٢، ففيه كلام جيد حول هذه النقطة.

إن تعدد المصاحف، واجتماع كل الجماعة على كل مصحف، ثم وصول كل مصحف إلى بلد كبير، فيه كثير من الصحابة والتابعين، يقرؤون القرآن ويعتبرون ذلك بحفظهم لينفي ذلك، والإنسان إذا نسخ مصحفاً وغلط في بعضه عرف غلطه بمخالفة حفظة القرآن، وسائر المصاحف، وعليه فالمسألة تبرز لنا أن كل مصحف كتبه جماعة من كبار الحفاظ والكتاب، ووقف عليه خلق كثير ممن يحصل التواتر بأقل منهم، ولو قدر أن الصحيفة كان فيها لحن فقد كتب منها جماعة لا يكتبون إلا بلسان قريش، فكيف يتفق الجميع على أن يكتبوا ﴿إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ وهم يعلمون أن ذلك لحن، لا يجوز في شيء من لغاتهم؟

وعلاوة على ما سبق نقول: إن الصحيفة التي أخذها عثمان من عند حفصة هي التي أمر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بجمع القرآن فيها، وقد قام بذلك زيد بن ثابت، وحديثه معروف في الصحيحين، وزيد كاتب للوحي وحافظ للقرآن، وقد حضر العرضة الأخيرة في رمضان حين عرض رسول الله ﷺ القرآن مرتين على جبريل في ذلك الشهر المبارك حيث كان آخر رمضان صامه عليه الصلاة والسلام.

ومن الطيب -هنا- أن نختم بما يطيب أن نقرره بصورة قاطعة، وهو أن من أهم العلوم الإسلامية التي أثمرها نزول الرسالة الخاتمة (القراءات القرآنية) إذ إن قراءة القرآن الكريم هي أول ما اهتم به المسلمون، وقد وضعت أصولها في عهد الرسول ﷺ على طريقة التلقي والعرض، واستمرت عبر الزمان حتى عرفنا عبارة (القراءات السبع) على رأس سنة مئتين للهجرة، وكتب ابن مجاهد كتاب (السبعة) وظل الأصل في القراءات -إلى يومنا هذا- الأخذ بالأثبت في الأثر، والأصح في النقل، وليس الأشيع في اللغة والأقيس، واستقر ضابط القراءات الصحيحة على ثلاثة شروط، لا يتخلف منها شرط، وهي:

١- أن تكون القراءة موافقة للعربية، ولو بوجه.

٢- أن تكون موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.

٣- أن يصح سندها عن الرسول ﷺ.

وعموماً فالصحابة تلقوا القرآن من فم الرسول ﷺ، وسمعوه منه في مناسبات كثيرة، وجاء التابعون ليتلقوا القرآن عن الصحابة رضي الله عنهم. وهكذا إلى أن حططنا الرحال في القرن الحادي والعشرين، ولا تزال مدارس تحفيظ القرآن تعتمد في منح إجازة القراءة على التلقي والضبط الواعي.... انتهى.

## النص الثامن

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ١١].

نبين من خلال ما قاله العلماء بعض أسرار هذه الآية الكريمة، وما جاء فيها من لفتات من ثنايا التعبير والسياق، ونبدأ بما جاء في التفاسير المعتمدة في هذه الآية:

في **تفسير الطبري**[1]: قال الله للسماء والأرض جيئا بما خلقت فيكما، أما أنت يا سماء فأطلعي ما خلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم، وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات، وتشققي عن الأنهار، ﴿قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ أي: جئنا بما أحدثت فينا من خلقك، مستجيبين لأمرك، لا نعصي أمرك. ونقل عن ابن عباس ذلك، وقال: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أعطينا طائعين.

وقيل: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ ولم يقل (طائعتين) والسماء والأرض مؤنثتان، لأن النون والألف اللتين هما كناية أسمائهما في قوله (أتينا) نظيره كناية أسماء المخبرين من الرجال عن أنفسهم، فأجرى قوله (طائعين) على ما جرى به الخبر عن الرجال كذلك، ويقرب المعنى ما اصطلح عليه اليوم في البلاغة من التشخيص.

وأنت ترى القول مسنداً إلى السماء والأرض، وهما مثنى، بصيغة

(١) انظر: تفسير الآية ١١ من سورة فصلت.

جمع المذكر السالم (طائعين) ولم يأت مسنداً إلى المثنى المؤنث (طائعتين) على اللفظ، ولا (طائعات) جمع مؤنث سالماً على المعنى، لأنهما سماوات وأرضون، ولأنه لما وصفهن بالقول والإجابة، وذلك من صفات من يعقل، أجراهما في الكناية مجرى من يعقل، ومثله قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٤]، وذلك في سياق الرؤيا التي قصها يوسف على أبيه يعقوب عليهما السلام، وفيه أنه سبحانه قال لهما: افعلا ما آمركما طوعاً وإلا ألجأتكما إلى ذلك حتى تفعلاه كرهاً، فأجابتا بالطوع. وقالوا: ولم يقل (طائعتين) لأنه ذهب إلى السماوات والأرض ومن فيهن، مجازه: أتينا بما فينا طائعين، ولما وصلهما بالقول أجراهما في الجميع مجرى من يعقل. أو نزّل من ليس له العلم، لكونه دالاً على معنى العلم، منزلة من له العلم، فجمع بالواو والنون كما في (طائعين)[١].

قال أهل العربية: ذهب به إلى السماوات والأرض ومن فيهن، وأنزلهما منزلة العقلاء[٢]. وقال آخرون منهم: قيل ذلك كذلك لأنهما لما تكلمتا أشبهتا الذكور من بني آدم.

وفي **تفسير ابن كثير**: المعنى استجيبا لأمري، وانفعلا لفعلي طائعين أو مكرهين، تنزيلاً لهن منزلة من يعقل. وقد نقل مثل ما جاء في الطبري، وقال: واختاره ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿قَالَتَا﴾ أي: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعاً.

وفي **تفسير القرطبي**[٣] قال: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ في الكلام حذف، أي: أتينا أمرك طائعين. وقيل: معنى هذا الأمر التسخير، أي: كونا فكانتا،

---

(١) انظر: الألوسي في تفسيره سورة الفاتحة عند ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
(٢) انظر في ذلك: تفسير الطبري.
(٣) انظر: ١٥/ ٣٤٤.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٤٠]، وقول الجمهور الأولى. وهناك من قال: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي طوعاً، والظاهر أن المراد أتينا في الوجود، فأطاعت كل من السماء والأرض بأمر التكوين، ويجوز حمله على معنى ائتيا بما خلقت فيكما من التأثير والتأثر وإبراز ما أودعتكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة، أو: إتيان السماء حدوثها، وإتيان الأرض أن تصير مدحوة، أو: ليأت كل منكما الأخرى في حدوث ما أريد توليده منكما[1].

وقال **الألوسي**[2]: هما -أي: طوعاً أو كرهاً- مصدران وقعا موقع الحال، أي: طائعتين أو كارهتين، ودل (أتينا) على أنهما انقادتا للأمر، وفيه تمثيل لكمال تأثرهما عن القدرة الربانية، وحصولهما كما أمرا به، وتصوير لكون وجودهما كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة، فإن الطوع في ﴿طَائِعِينَ﴾ منبئ عن ذلك، والكره موهم لخلافه. وكما مر؛ قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ جاء جمع مذكر سالماً مع اختصاصه بالعقلاء، باعتبار كونهما في معرض الخطاب والجواب، ولا وجه للتأنيث عند إخبارهم عن أنفسهم، لكون التأنيث بحسب اللفظ فقط.

- وفي قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ وجهان، أحدهما أنه قول تكلم به، والثاني: أنها قدرة منه -سبحانه- ظهرت لهما، فقام هذا الظهور مقام الكلام في بلوغ المراد، ذكره الماوردي.

وفي قوله: ﴿قَالَتَا﴾ أيضاً وجهان، أحدهما أنه ظهور الطاعة منهما، حيث انقادا وأجابا، فقام مقام قولهما، ومنه قول الراجز:

**امتلأ الحوض وقال قطني ومهلاً رويداً قد ملأت بطني..**

---

(١) انظر: الألوسي، الآية ٢٩ من سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

(٢) انظره عند قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

أي: ظهر ذلك فيه، وقال أكثر أهل العلم: بل خلق الله فيهما الكلام، فتكلمتا كما أراد الله تعالى.

- قوله تعالى: ﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ تمثيل لتحتم تأثير قدرته فيهما، واستحالة امتناعهما من ذلك، لا لإثبات الطوع والكره لهما.

وهناك من حمل قضية الخطاب للجمادات ولما لا يعقل على المجاز، وقال: ومن ذلك سائر ما يحكى عن الحيوان والجماد، كقول الشاعر:

شكا إلي جملي طول السرى مهلاً رويداً فكلانا مبتلى

ومثله إسناد الخشوع للحجارة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ٧٤]، قال ابن كثير[1]: وقد زعم بعضهم أن هذا -أي إسناد الخشوع إلى الحجارة- من باب المجاز، ومثله إسناد الإرادة إلى الجدار كما في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾، قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة: لا حاجة إلى هذا، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢]، وقال: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٦]، وقال أيضاً: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ٢١]. وفي الصحيح عن جبل أحد: "هذا جبل يحبنا ونحبه"، ومثل حنين الجذع المتواتر خبره، وفي صحيح مسلم: "إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن". وسيأتي مزيد من هذه الشواهد.

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ١/ ٣٠٥، دار طيبة للنشر، ٨ أجزاء.

وفي **تفسير الرازي** [1]: اعلم أن ظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله أمر السماء والأرض بالإتيان. فأطاعا وامتثلا، وعند هذا حصل في الآية قولان:

**الأول**: أن تجري هذه الآية على ظاهرها، فتقول: إن الله أمرهما بالإتيان فأطاعاه... قال القائلون بهذا القول: وهذا غير مستبعد، ألا ترى أنه أمر الجبال أن تنطق مع داوود عليه السلام، فقال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٠]، وأن الله تعالى تجلى للجبل، وقال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٣]؛ والله تعالى أنطق الأيدي والأرجل فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٢٤]؟ وإذا كان كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله في ذات السماء والأرض حياة وعقلاً وفهماً، ثم يوجه الأمر والتكليف عليهما؟ ويتأكد هذا الاحتمال بوجوه:

الأول: أن الأصل حمل اللفظ على ظاهره إلا إذا منع منه مانع، وههنا لا مانع، فوجب إجراؤه على ظاهره، وهو هنا كما هو واضح يقرر قاعدة تقول: صرف الكلام عن ظاهره بغير دليل لا يجوز.

الثاني: أن الله تعالى أخبر عنهما فقال: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ وهذا الجمع جمع ما يعقل ويعلم.

وفي زاد المسير لابن الجوزي: لم يقل: طائعات، لأنهن جرين مجرى ما يعقل ويميز، كما قال في النجوم: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٤٠].

الثالث - مما قاله الفخر الرازي - قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢] وهذا يدل على كونها عارفة بالله مخصوصة بتوجيه تكاليف الله عليها، والإشكال عليه أن يقال: إن المراد من قوله تعالى:

---

(١) انظره عند قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ [فصلت: ٤١/ ١١].

﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ الإتيان إلى الوجود والحدوث والحصول، وعلى هذا التقدير فمحال توجه هذا الأمر إذا كانت السماوات والأرض معدومة، إذ لو كانت موجودة لصار حاصل هذا الأمر أن يقال: يا موجود كن موجوداً، وهذا لايجوز! فثبت أنها حال توجه هذا الأمر إليها كانت معدومة. لكن من العلماء من وجه هذا الخطاب، وإن كان المخاطب غير حاصل في الوجود إلى أنه خطاب له من حيث كونه معلوماً في العلم.

هذا، وقد ساق الرازي **القول الثاني** فقال: إن قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ﴾ ليس المراد منه توجيه الأمر والتكليف على السماوات والأرض، بل المراد منه أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع.... ومثل لذلك بقول القائل: قال الجدار للوتد: لِمَ تشقُّني؟ قال الوتد: اسأل من يدقني... ثم قال: واعلم أن هذا عدول عن الظاهر، وإنما جاز العدول عن الظاهر إذا قام دليل على أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره، وقد بينا أن قوله: ﴿ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ إنما حصل قبل وجودهما، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حمل قوله: ﴿ائْتِيا﴾ على الأمر والتكليف، فوجب حمله على ما ذكرنا[١].

وعلى ما ذكر يكون قولهما ﴿أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ دالاً على نفاذ القدرة في الإيجاد والإبداع من غير ممانعة أصلاً، كما أن قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ دالٌّ على نفوذ القدرة في التفريق والإعدام والإفناء من غير ممانعة أصلاً.

وزيادة في البيان قال الرازي[٢]:

في **المسألة السادسة عشرة**: إن لفظ (القول) يصح جعله مجازاً عن

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي عند قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ [فصلت: ٤١/ ١١]، وكذا عند قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٢].

(٢) انظر تفسيره عند قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ١/ ٧].

الاعتقادات والآراء، كقولك: فلان يقول بقول أبي حنيفة... مثلاً، ألا ترى أيضاً أنك لو سألت رجلاً عن صحة اعتقاد رؤية الله تعالى يوم القيامة فقال: لا تجوز رؤيته، فتقول هذا قول المعتزلة، ولا تقول هذا كلام المعتزلة إلا على سبيل التعسف؟

وجاء في المسألة السابعة عشرة: لفظ (قال) يستعمل في غير النطق، ومنه قول أبي النجم:

**قالت له الطير تقدم راشداً إنك لا ترجع إلا حامداً**
**وقالت له العينان سمعاً وطاعة وحدرتا كالدر لما يثقب**

وساق قول الراجز:

**امتلأ الحوض وقال قطني**

وما جاء في المثل: قال الجدار للوتد لم تشقني... ثم قال: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ﴾.

هذا، وقد جاء في البحر المحيط[1]: جعل ابن عطية هذه المحاورة بين الباري والأرض والسماء بعد خلق الأرض والسماء، ورجح قول من ذهب إلى أنهما نطقتا نطقاً حقيقياً، وجعل الله لهما حياة وإدراكاً تقتضي نطقهما بعد أن ذكر أن المفسرين منهم من ذهب إلى أن ذلك مجاز، وأنه ظهر منهما عن اختيار الطاعة والتذلل والخضوع ما هو بمنزلة القول، ثم قال: والقول الأول -أي النطق على الحقيقة- أحسن. لأنه لاشيء يدفعه، وأن العبرة فيه أتم، والقدرة فيه أظهر.

وترجيحاً لقول من أجرى النص على الحقيقة، ونافلة في ذلك من واقع السيرة الثابتة، وإن جاء في صورة معجزة لكنه ينضح بالدلالة الصارخة

(١) انظر: تفسير البحر المحيط عند تفسير الآية ١١ من سورة فصلت.

على إمكانية نبض ما يرى أنه جماد بالمشاعر، فإننا نسوق حديث الجذع الذي ذكرناه من قبل عرضاً، وفيه: أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يخطب إلى جذع نخلة، ولما صنع له المنبر ترك الجذع، ولما تجاوز الجذعَ في طريقه إلى المنبر حيث وُضِعَ ليعتليَه، سمع أهل المسجد قاطبة حنين الجذع حين فارقه عليه السلام أول جمعة خطبها من فوق المنبر، وما هدأ حنينه حتى نزل الرسول فاحتضنه، وكان الجذع حالئذ ينشج نشيج الطفل حين تضمه أمه بحنانها[1]، وإليك النص كما ورد:

كان النبي قبل صنع المنبر الشريف يخطب قائماً، يعتمد على جذع نخل منصوب على يمين المحراب اليوم (إذ لم يكن في زمانه عليه الصلاة والسلام محراب، بل كان يصلي إلى جذع سارية من سواري المسجد، وهي أمام المحراب اليوم) فكان إذا طال وقوفه أو شعر بتعب وضع يده الشريفة على ذلك الجذع.. وكثر عدد المصلين، وضاق المسجد بأهله، فلم يعد من يكون في آخر المسجد يرى رسول الله، وهذا جعل الصحابة يقترحون صناعة منبر يقف عليه، وقَبِل عليه الصلاة والسلام، ووضع المنبر في موضعه، وخرج الرسول من باب حجرته يوم الجمعة يريد المنبر ليخطب عليه، فلما جاوز الجذع الذي كان يخطب عنده ويضع يده عليه إذا به يصرخ، ويحن، حتى ارتج المسجد، وتساقط الغبار، وتشقق الجذع، ولم يهدأ، وتأثر الصحابة وبكوا (وهنا أقول: أي أفق إيماني ارتقى إليه الصحابة أمام هذا المشهد الكوني الدفاق بالمعاني والحقائق، وأي فضاء عاطفي سرحت في آفاقه قلوبهم!)، ونزل النبي عن المنبر وأتى

(١) حديث حنين الجذع أخرجه البخاري في صحيحه، باب علامات النبوة، برقم ٣٥٠٩، عن جابر رضي الله عنه، وبرقم ٣٥٠٧، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وباب الخطبة على المنبر عن جابر، برقم ٩٧؛ وكذا في مسند الإمام أحمد، مسند جابر بن عبد الله، برقم ١٣٩١٥ و١٣٩٩١، وفي المسند أيضاً عن أبي بن كعب، برقم ٢٠٨٧٩. وقد روى الحديث عدد من الصحابة بلغوا مبلغ التواتر.

الجذع ووضع يده الشريفة عليه، ومسحه ثم ضمه إلى صدره حتى هدأ، ثم خيره -وهو الجماد الواعي العاشق- بين أن يكون شجرة في الجنة تشرب عروقه من أنهارها ويأكل منه المؤمنون فيها، وبين أن يعود شجرة مثمرة في الدنيا حيث يعيده إلى البستان الذي كان فيه فيثمر من جديد ويأكل منه المؤمنون فيها، فاختار الجذع الحنّان الجنة، فقال الرسول: "أفعل إن شاء الله" -قالها ثلاثاً- فسكن الجذع، ثم قال عليه الصلاة والسلام: "والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لبقي يحن إلى قيام الساعة شوقاً إلى رسول الله". هذا، وما ابتعد عنه إلا مسافة قصيرة، لكنه لم يحتمل هذا البعد، وعبر عن حاله تعبيراً هز نفوس الصحابة ﷺ.

كذلك ورد أنه عليه الصلاة والسلام أخذ حصيات بكفه الشريفة، فسمع الصحابة في مجلسه تسبيحهن في كفه عليه السلام[١].

كذلك صعد الرسول مرة جبل أُحد ومعه الصِّدِّيق وعمر وعثمان ﷺ، وهو - كما هو معلوم - جبل من جبال المدينة المنورة، فما كان من الجبل إلا أن رجف طرباً بمن عليه، فقال له الرسول: «اثبت أحد، إنما عليك نبي وصديق وشهيدان»، وفي الحديث أكثر من معجزة[٢]؛ إذ كشف عما سيكون من أمر عمر وعثمان، وأماط عن منزلة الصديق.

وأنت ترى فيما سقنا أن الجذع والحصيات والجبل صدر عن كل منها أمر يصدر عن العقلاء الواعين لما يتصل بهم، وهذا كثير في سيرته عليه السلام بلغ لكثرته مبلغ التواتر، أفلا يكشف لنا عن أسرار في هذا الوجود

---

(١) انظر حديث تسبيح الحصى في: مجمع الزوائد، من حديث أبي ذر ﷺ، برقم ٣٠١٤١؛ ورواه البزار؛ والطبراني في الأوسط.

(٢) انظر الحديث في: صحيح البخاري، باب مناقب عمر، برقم ٣٦٠٤؛ وفي النسائي: باب وقف المساجد عن أبي مسلم بن عبد الرحمن، برقم ٣٦١٣؛ وفي مسند أبي يعلى من حديث ميمونة زوج النبي ﷺ، برقم ٧٥١٩.

تطل بنا على حقائق قد سترتها المادية التي حبست الأنظار فيها، أسرار لما نطلع عليها إلا حيث ظهرت في صورة المعجزة، أمَا إنَّ هذه الحقائق تكشف لنا عن جانب من طاقات مدفونة في هذا الكون لها آثار مدهشة حقاً...

# النص التاسع

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۚ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: ٤٩/٩].

هناك مجموعة من الأسئلة حول ألوان التعبير في الآية الكريمة، من مثل: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ دون (اقتتلتا) لأن الحديث عن طائفتين؟ ثم لم رجع إلى ضمير المثنى بقوله: ﴿بينهما﴾ دون ﴿بينهم﴾ مع أن الفعل أسند إلى واو الجماعة؟

سنتناول المناسبة التي نزلت بها الآية الكريمة وتميط عن بعد المضمون، ثم المفردات وأبعاد معانيها، ونعطف على المعنى العام للنص، ونأتي قبل الختام بإعراب كلمات من النص، ونطلق لمسات بلاغية من خلال الأداء القرآني الذي جاء ليصوغ السلوك الإنساني صياغة تسعد بها الحياة.

جاء التعبير القرآني في الآية ألواناً عجيبة هادفة، نحدد ما وقفنا عليه منها بما يلي:

علام انصب الشرط (إن) في الآية؟ وما سر عود الضمير في ﴿بينهما﴾ إلى المثنى دون عوده إلى الجمع (بينهم)؟ ولم عاد إلى المثنى أيضاً في سياق الأمر بالإصلاح ﴿فأصلحوا بينهما﴾؟ ولم قال: ﴿اقتتلوا﴾ دون (يقتتلون) المضارع؟

وأسئلة أخرى يطرحها التناول في طريقه لاكتشاف أبعاد النص، وأرجو أن نسدد إجابة، وأن نوفق في بيان عمق التعبير ودقة أدائه، علماً أن القرآن الكريم منهج كامل شامل يغطي كل أنشطة الحياة وحركتها تقويماً وتسديداً وتبصيراً، ومسألة البلاغة سمة القرآن المعجزة، فهو من أدلة صدق الوحي...

في كتب التفسير أن هذه الآية نزلت في (طائفتين) من الأوس والخزرج اقتتلتا في بعض ما تنازعتا عليه بالأيدي والنعال، ففي (الوجيز) للواحدي[1]: نزلت في جمعين من الأنصار كان بينهما قتال بالأيدي والنعال. وقد تضمن النص نهياً للمؤمنين عن أن يبغي بعضهم على بعض، وعن أن يقاتل بعضهم بعضاً، وأنه إذا اقتتلت طائفتان منهم فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح. وفيه أمر بالصلح، وبالعدل فيه، إذ قد يكون الصلح دون العدل، ثم جاءت الآية التالية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ تبين أن الأخوة عقد عقده الله بين المؤمنين، له مقتضياته، ويترتب على الوفاء به آثاره، وأثنى على المقسطين العادلين في حكمهم بين الناس، على أن الإصلاح بين الطائفتين يكون بالدعاء إلى حكم الله تعالى، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل.

وعليه، فبغي إحدى الطائفتين يظهر في إبائها الإجابة إلى ما تدعى إليه من حكم الكتاب والسنة، وتعديها ما جعل الله عدلاً بين خلقه، وهذه تقاتل حتى ترجع إلى ما أبته من حكم الكتاب، فإن رجعت الباغية بعد قتالها إلى الرضا بحكم الله فليصلح بينها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها بالعدل والإنصاف. ويتبين أن من أبى أن يستجيب لحكم الله فهو باغ،

(١) ١٠١٧/١٧.

وحق على إمام المسلمين أن يجاهدهم، على أن الفئة الباغية لا يقاتلها إلا الإمام، وهذا أمرٌ أمَرَ الله به الولاة، ومن دواعي المصالحة التذكير بالرابطة الأخوية بين الطرفين.

**طائفتان**: مثنى طائفة، وإنما كانا رجلين، والطائفة: الجماعة من الناس، والقطعة من الشيء، يقال: أكلت طائفة من الشاة، أي: قطعة منها، والطوفان كل حادثة تحيط بالإنسان، وصار متعارفاً في الماء المتناهي في الكثرة. والطائفة كذلك: الجماعة الذين يجمعهم رأي أو مذهب يميزهم عن سواهم، كذا الطائفة مؤنث الطائف، وتجمع على (طائفات وطوائف)، وفي القاموس: والطائفة من الشيء القطعة منه، أو الواحد فصاعداً إلى الألف، أو أقلها رجلان، أو رجل، فيكون بمعنى النفس، وقال شارح القاموس في (تاج العروس): قوله: فيكون بمعنى النفس، هنا توجيه لكون تاء (الطائفة) للتأنيث حينئذ، أي: النفس الطائفة، قال الراغب: إذا أريد بالطائفة الجمع فجمع طائف، وإذا أريد به الواحد، فيصح أن يكون جمعاً، وكنى به عن الواحد، وأن يكون كراوية وعلامة ونحو ذلك. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ٩/١٢٢]، فالطائفة -هنا- دالة على الجمع، بدليل قوله بعدها ﴿ليتفقهوا﴾ فدل على أن الطائفة جماعة، لأن الضمير في الفعل ضمير الجماعة.

قال **القرطبي**[1]: قلت: أنص ما يستدل به على أن الواحد يقال له طائفة قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ [الحجرات: ٤٩/٩] يعني نفسين، دليله قوله تعالى بعده: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٠]، فجاء بلفظ التثنية، وأقل ما يقع بينهم الشقاق اثنان، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت

(١) التفسير ٨/٢٦٦.

بين الأكثر ألزم، والضمير في ﴿اقتتلوا..﴾ وإن كان ضمير جماعة، فأقل الجماعة اثنان في أحد القولين للعلماء.

وفي **القرطبي**: الطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين، فهو في ﴿اقتتلوا﴾ مما حمل على المعنى دون اللفظ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس.

وفي **روح المعاني**[١]: العدول إلى ضمير الجمع لرعاية المعنى في قوله ﴿اقتتلوا﴾ فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة، فقد روعي في الطائفتين معناهما أولاً، ولفظهما ثانياً على عكس المشهور في الاستعمال، والنكتة في ذلك ما قيل أنهم أولاً في الاقتتال مختلطون، فلذا جمع أولاً ضميرهم، وفي حال الصلح متميزون ومتفارقون فلذا ثنى الضمير، وأميل إلى أن هذا الأسلوب مع هذه الضمائر رشح ليشمل الأمرُ أيَّ تنازع يؤدي إلى الاقتتال سواء كان بين اثنين أو أكثر..

وفي **الكشاف**: ﴿اقتتلوا﴾ هو مما حمل على المعنى، معنى (الطائفة) دون اللفظ، كما حمل على اللفظ بقوله ﴿بينهما﴾ فلفظ الطائفة مفرد أبداً، ومعناها جمع أبداً، ثم نافلة رائعة هي أن قوله ﴿طائفتان﴾ يرجع إلى جيش من الأنصار: الأوس والخزرج، وحيث كانت كل طائفة مجموعة من الأفراد جاء الفعل ﴿اقتتلوا﴾ يصور واقع القتال أو الاقتتال من حيث المشتركون فيه، فهما طائفتان، إذ كل واحدة في جهة مختلفة مع الأخرى، لكنهما قد جمعتا أفراداً عديدين اشتركوا في القتال، ثم لما ذكر الصلح راعى أنه في الطائفتين على سواء، لذا قال ﴿بينهما﴾، ويدل ضمير المثنى (هما) على أن الصلح إنما يعقد بين زعيمي الطائفتين حسب منطق الواقع، لكنه لم يذكر الزعماء نصاً، لأن الأصل أن يكون الزعيم

(١) ٢٦ / ١٤٦.

هو الممثل للطائفة خصوماتها، فكأنها هو، أو كأنه هي، وحيث إن الصلح لا يتحقق بين الطائفتين إن تصالح اثنان منهما إلا أن يكونا زعيمين جاء ضمير المثنى موجهاً إلى هذين على الخصوص، ولو قال: فأصلحوا بينهم، لتعذر إقامة الصلح بين كل الأفراد مباشرة.

والخلاصة -هنا- أن الضمير في ﴿اقتتلوا﴾ يعود إلى أفراد الطائفتين، وأن الضمير في ﴿بينهما﴾ يعود على المصالحة بين الطائفتين من خلال الرؤساء فيهما. هذا، وقد قرأ الجمهور ﴿اقتتلوا﴾ باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ٢٢/١٩]، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿اقتتلتا﴾ اعتباراً بلفظ ﴿طائفتان﴾، وقرأ زيد بن علي وعبد بن عمير: ﴿اقتتلا﴾ وتذكير الفعل في هذه القراءة باعتبار الفريقين أو الرهطين[1]، والإصلاح يكون بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يحصر.

**البغي**: التعدي بغير حق، والامتناع من الصلح الموافق للصواب، والبغي[2]: الظلم والاعتداء على حق الغير، فبغت: تعدت وطلبت العلو بغير الحق على الأخرى ولم تتأثر بالنصيحة، والباغي مؤمن؛ إذ لا يخرجه بغيه عن الإيمان، لجعل كل من الباغي والمبغي عليه من المؤمنين، وإن كان البغي من الكبائر..

**فاءت**: رجعت، وأصل الفيء الرجوع من حال إلى حال، وتفيء مضارع فاءت.

قال سحيم عبد بني الحسحاس:

**ففاءت ولم تقض الذي أقبلت له ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا**

أي: عادت من يتحدث عنها إلى أهلها، وقد أضاعت ما كانت مزمعة

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني ٥ / ٨٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير عند تفسير قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾..

أن تفعله، أنساها حبه ما كانت نوته، فيعزيها بأن المرء ربما طلب قضاء شيء وشاء الله غيره.

**أقسطوا**: اعدلوا، من أقسط، لا من قسط، لأن قسط جار، وأقسط عدل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ١٥].

## الإعراب

وإن: الواو عاطفة، و(إن) حرف شرط جازم، يخلص الماضي للاستقبال، فيكون في قوة المضارع.

طائفتان: فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده (اقتتلوا)، والتقدير: إن اقتتل طائفتان اقتتلوا.. ودل ذلك على الاهتمام بالفاعل موضوع الحدث، وإنما عدل عن المضارع بعد كونه الأليق بالشرط (إن) لأنه لما أريد تقديم الفاعل على فعله، للاهتمام بالمسند إليه جعل الفعل ماضياً على طريقة الكلام الفصيح في مثله، مما أوليت فيه إن الشرطية الاسم، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦/٩]، وقوله: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ [النساء: ١٢٨/٤] والتقدير: إن استجارك أحد استجارك.. وإن خافت امرأة خافت.

قال الرضي: وحق الفعل الذي يكون بعد الاسم الذي يلي (إن) أن يكون ماضياً، وقد يكون مضارعاً على الشذوذ، وإنما ضعف مجيء المضارع لحصول الفصل بين الجازم وبين معموله.

ويعود ضمير ﴿اقتتلوا﴾ على ﴿طائفتان﴾ باعتبار المعنى، لأن طائفة ذات جمع، والطائفة الجماعة، والوجه أن يكون فعل ﴿اقتتلوا﴾ مستعملاً في إرادة الوقوع، لا الوقوع الفعلي، لأن الأمر بالإصلاح بينهما واجب قبل الشروع في الاقتتال، وذلك عند ظهور بوادره، وهو أولى من انتظار وقوع الاقتتال؛ ليمكن تدارك الخطب قبل وقوعه، وبذلك يظهر وجه

تفريع قوله ﴿فإن بغت﴾ على جملة ﴿اقتتلوا﴾ أي: فإن ابتدأت إحدى الطائفتين قتال الأخرى ولم تنصع إلى الإصلاح فقاتلوا الباغية.

وإني ههنا أنصح لكل من يشكل عليه شيء من كتاب الله أن يرجع فيه إلى العلماء الثقات، وإلى القواعد الراسخة في التعامل مع النصوص، عندها لا يبقى أي إشكال بإذن الله تعالى. ثم إن المنطلق المنطقي أن يكون القرآن حكماً لا يناقش على اللغة العربية، وحيثية هذا المنطلق المنطقية أن اللغة بأساليبها وقواعد نحوها وطرائقها ترجع إليه، وإلى النصوص الأصيلة قبله، فهو أهم مصدر لهذه اللغة، لضبطه الكامل، ونقله الدقيق، وحفظه عبر الأجيال عبر طريقين، لم تعثر البشرية حتى يومنا هذا على طريقة ثالثة في الحفظ غيرهما، هما: الحفظ الشفوي الذي قام به الملايين، وليست مبالغة، والكتابة التي واكبت نزول الوحي.

وأسأل من يشتبه عليه أمر لغوي أو نحوي في القرآن: ألا تعلم أن القرآن قد وصل إلينا عبر التلقي من الصدور، والتوثيق كتابة في السطور؟ ألا تعلم أن الكتابة واكبت التنزيل، فلم تتأخر عنه ساعة؟ ألا يخطر بالبال أن الصحابة الذين أوصلوا لنا القرآن هم أهل اللسان، وإليهم نتحاكم في قضايا اللغة؟ أتراهم غفلوا عما فطن له هذا المكتشف العملاق؟ أكان هناك لحن في واقعهم اللغوي؟ علماً أن اللغة فيهم كانت سليقة، ونحن ندرسها سنين، ونتقدم بامتحانات فيها، وربما كان الرسوب في النحو خاصة سمة المختصين بالدراسات اللغوية مما كاد يشكل في نفوسهم عقدة النحو، مما دفع بعضهم إلى المناداة بالإطاحة به تحت عنوان التجديد والتيسير، ولعمر الحق كلما هبطت لغتنا في ميدان الاستعمال ازداد توهج أنوار الإعجاز وشمخ التحدي في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤]، فإذا أبكم أهل اللسان عن الإتيان بمثله، فما حال من يدرس النحو فلا ينجح فيه؟ أيظن بأن الصحابة تلقوا ما لم

يدركوا الخطأ فيه مما يخالف لغتهم، أم أدركوا وسكتوا، أم سمعوا قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٩٥] وهو نص ثم جهلوا ما وقف عليه المشاغب ضال القلب معوج اللسان؟

## النص العاشر

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٦].

الكلام في سر مجيء الخبر ﴿قريب﴾ بهذه الصيغة دون (قريبة)؛ إذ كلمة (الرحمة) في الآية هي المخبر عنها، وهي لفظة مؤنثة.

في البداية، أليس من العجائب أن تحاكم كلمة قرآنية في محكمة قواعد اللغة العربية، والقرآن الكريم نفسه وضع تلك القواعد؟!

### الإعراب

إنّ: حرف مشبه بالفعل، ناسخ.

رحمة الله: رحمة: اسم إن منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة، وهي مضافة. ولفظ الجلالة (الله) مضاف إليه.

قريب: خبر (إن) مرفوع، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.

من المحسنين: من: حرف جر، والمحسنين: اسم مجرور، وعلامة جره الياء، لأنه جمع مذكر سالم، والجار والمجرور متعلقان بـ (قريب).

قال البيضاوي في تفسيره[1]: قال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: ذوي خوف من ردِّ لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم، وطمعٍ في إجابته تفضلاً وإحساناً لفرط رحمته. ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ترجيح للطمع، وتنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة، وتذكير ﴿قريب﴾

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ١٣، طبعة مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت.

لأن الرحمة بمعنى (الرحم)؛ إذ الرحمة والرحم متقاربان لفظاً، وهو واضح، ومعنى، بدليل النقل عن الأئمة، فأعطي أحدهما حكم الآخر.

أو: على تشبيهه بـ (فعيل) الذي هو بمعنى (مفعول).

أو: هو مصدر (كالنقيض).

أو: للفرق بين (القريب) من النسب، و(القريب) من غيره.

ألا ترى إلى سعة اللغة، وكثرة أبوابها، وتعدد ميادينها، وأن كل وجه من الأوجه المذكورة له طعم خاص وعطاء، مع قبول الصيغة لجميع ما ذكر!؟

كذلك جاء في الكشاف[١] عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: وإنما ذكّر ﴿قريب﴾ على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو: لأنه صفة موصوف محذوف، أي: شيء قريب، أو: على تشبيهه (بفعيل) الذي هو بمعنى (مفعول) كما شبه ذاك به، فقيل: قتلاء وأسراء، أو: على أنه بزنة المصدر الذي هو النقيض والضغيب[٢]، أو: لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي.

وفي تفسير (**التحرير والتنوير**) لابن عاشور[٣] قال:... وعدم لحاق علامة التأنيث لوصف ﴿قريب﴾ مع أن موصوفه - أي: رحمة - مؤنث اللفظ، وجهه علماء العربية بوجوه كثيرة، وأشار إليها في (الكشاف)، وجلها يحوم حول تأويل الاسم المؤنث بما يرادفه من اسم مذكر، أو:

---

(١) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٢/ ٨٣، طبعة دار المعرفة.

(٢) الضغيب: صوت الأرنب والذئب، وقيل: هو تضور الأرنب عند أخذها، وفي المحكم: الضاغب الذي يختبئ في الخُمُر، فيفزع الإنسان بمثل صوت السبع أو الأسد أو الوحش.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ١٧٧، طبعة الدار التونسية للنشر.

الاعتذار بأن بعض الموصوف به غير حقيقي التأنيث كما هنا، وأحسنها - عندي- قول الفراء وأبي عبيدة: أن قريباً أو بعيداً إذا أطلق على قرابة النسب أو بعد النسب، فهو مع المؤنث بتاء، ولا بد، وإذا أطلق على قرب المسافة أو بعدها جاز فيه مطابقة موصوفه، وجاز فيه التذكير، على التأويل بالمكان، وهو الأكثر، قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ١١/ ٨٣] وقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٣] ولما كان إطلاقه في هذه الآي على وجه (الاستعارة) من قرب المسافة جرى على الشائع في استعماله في المعنى الحقيقي، وهذا من لطيف الفروق العربية في استعمال المشترك إزالة للإبهام بقدر الإمكان.

وفي **إعراب القرآن الكريم** للأستاذ محيي الدين الدرويش[(١)]: "...قال أبو عبيدة: تذكير ﴿قريب﴾ على تذكير المكان، أي: مكان قريب، ورد عليه الأخفش فقال: هذا خطأ، ولو كان كما قال لكان ﴿قريب﴾ منصوباً، كما تقول: إن زيداً قريباً منك. وقال الفراء: إن القريب إذا كان بمعنى المسافة يذكر ويؤنث، وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم، فيقال: دارك منا قريب، وفلانة منا قريب، قال تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، ومنه قول امرئ القيس:

**لكِ الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا**

في **روح المعاني** للألوسي[(٢)] قال - عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾-: وقد كثر الكلام في توجيه تذكير ﴿قريب﴾ مع أنه صفة مخبر بها عن المؤنث، وقد نقل ابن هشام في ذلك وجوهاً ذاكراً ما لها وما عليها، منها:

الأول: أن الرحمة في تقدير الزيادة، والعرب قد تزيد المضاف، قال

---

(١) إعراب القرآن الكريم لمحيي الدين درويش ٣/ ٢٧١، طبعة اليمامة ودار ابن كثير.

(٢) روح المعاني ٨/ ١٤١، طبعة دار إحياء التراث العربي.

سبحانه وتعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١] أي: سبح ربك، ألا ترى أنه يقال في التسبيح: سبحان ربي، ولا يقال: سبحان اسم ربي؟ وهنا لابد من ذكر أن الزيادة لها دورها في المعنى، إذ لا زيادة -على الإطلاق- بلا معنى تؤديه، والاسم -هنا- حين انصب عليه الفعل (سبح) مع تقدير زيادته، دل على أن الذات في التنزيه من باب أولى، ذلك أن تنزيه الذات ينضح على تنزيه الأسماء.

ثم قال[1]: والتقدير: إن الله تعالى قريب، فالخبر في الحقيقة عن الاسم (الأعظم) - أي: (الله) - في الآية، وتعقبه بأن هذا لا يصح عند علماء البصرة، لأن الأسماء لا تزاد في رأيهم، وإنما تزاد الحروف، ومعنى الآية -عندهم-: نزه أسماء ربك عما لا يليق بها، فلا تجر عليه - سبحانه - اسماً لا يليق بكماله، أو اسماً غير مأذون فيه، فلا زيادة.

ولمسة فيما يتعلق بتقدير الزيادة تتجلى في أن العقيدة علمتنا ألا نسند الآثار للصفات إلا مجازاً، فلا نقول: هذا خلقته القدرة مثلاً، إنما نسندها إلى الذات المتصفة بالصفات، ومنها القدرة التي دل عليها المقدور، لأن الصفات قائمة بالذات، ولا تنفك عنها بحال، فنقول: "هذا خلق الله تعالى"، خلقه بقدرته، وهذا المعنى يعضد التقدير: (إن الله قريب) وذلك أن قرب الصفة قرب للذات بالبداهة، لعدم الانفكاك، وكل هذا على ما يليق بالله تعالى.

إن ﴿قريب﴾ صفة مخبر بها - حسب الظاهر - عن كلمة ﴿رحمة﴾ وهي مؤنث، والعرب قد تزيد المضاف ليؤدي مهمة دون أن يكون له تأثير في الإعراب، على أن علماء البصرة -كما مر- لم يوافقوا على مسألة الزيادة إلا في الحروف، والعرب تعطي المضاف حكم المضاف إليه في التذكير والتأنيث إن صح الاستغناء عنه، ولو تقديراً، وهو أمر مشهور،

(١) أي: الألوسي في تفسيره.

فالرحمة لإضافتها إلى الاسم الجليل قد اكتسبت ما صحح الإخبار عنها بالمذكر.

وقد تخبر العرب عن المضاف إليه، وتترك المضاف، كقوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٤]، واللفتة -هنا- أنه لو قال: (خاضعة) لبرز الخضوع في الرقاب وحدها، أما مع ﴿خاضعين﴾ فالخضوع عمَّ الذات كلها، وخاصة الرقبة، والخصوصية -هنا- تأتت من إسناد (الأعناق) إلى الفعل (ظل) فما أروع هذا العطاء!! وما أعمقه!! إذ مجيء ﴿خاضعين﴾ خبراً عن الضمير (هم) المضاف إلى (الأعناق) لا عن الأعناق، من وراء هذا، أو: هو من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر، لكونه تبعاً له، ومعنى من معانيه، وهنا استغنى عن خبر (الأعناق) بالخبر عن أصحابها، وأدى لفظ (الأعناق) دوراً في المعنى لا يقل عمقاً عن دور الخبر، إذ الرقبة -استقامة وميلاً- مظهر من مظاهر النفس، أليس الخاضع يلوي عنقه ليأ ينكس به الرأس المحمول عليه؟! كما جاء في قوله: ﴿خاضعين﴾ وافياً كافياً شافياً مشعاً.

وعلاوة على ما مر فإن صيغة (فعيل) بمعنى (مفعول) يستوي فيها المذكر والمؤنث، تقول: رجل جريح - بمعنى مجروح- وامرأة جريح كذلك.

قال علماء اللغة: (فعيل) يأتي على ضربين، يأتي بمعنى فاعل، مثل: قدير، سميع، عليم، وبمعنى (مفعول) مثل: قتيل، جريح، ذبيح، ويقال: كفٌّ خضيب وطرف كحيل، وشعر دهين.

فإذا أتى بمعنى (فاعل) فقياسه أن يجري مجراه في إلحاق التاء به مع المؤنث دون المذكر، كجميل وجميلة، وشريف وشريفة، وصبيح وصبيحة، وصبي وصبية، ومليح ومليحة.

وإذا أتى بمعنى (مفعول) فلا يخلو، إما أن يكون مع الموصوف، كرجل قتيل، وامرأة قتيل، ويستوي فيه المذكر والمؤنث، أو يفرد عنه،

فلا يصحب الموصوف، فإن لم يصحب الموصوف فإنه يؤنث إذا جرى على المؤنث، نحو "قتيلة بني فلان"، ومنه قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ [المائدة: ٥/٣]، هذا حكم (فعيل).

ولما كان وزن (فعيل) أخف استغني به عن وزن (فاعل) في المضاعف، وهو ما كانت عينه ولامه من جنس واحد، مثل: جليل وعزيز وذليل، من فعل جلَّ وعزَّ وذلَّ، فلا يقال: من فعل (جلَّ) جالل، كراهية منهم لثقل التضعيف، إذا قالوا من (جليل) جالل، أو من (عزيز) عازز، أو من (ذليل) ذالل، لذا أتوا (بفعيل) من هذه الأفعال، مفصولاً فيه بين المثلين بالياء الساكنة، أي: (جليل) فصل بين اللام واللام بالياء، فالمثلان-هنا- اللامان كما ترى.

كذلك لم يأتوا في هذا (بفعول)، لأن (فعيلاً) أخف منه، ولخفته -أيضاً- اطرد بناؤه من الباب الخامس (فَعُلَ-يفعُلُ) مثل: شريف وطريف وجميل، ولخفته-أيضاً- كان في أسماء الله تعالى أكثر من (فعول) فإن الأسماء على وزن (فعيل) كالرحيم والقدير والحسيب والجليل والرقيب، ونظائرها أكثر من ألفاظ الرؤوف والغفور والشكور والودود والصبور والعفو، على زنة (فعول)، ولا يعرف على هذا الوزن من الأسماء إلا هذه الستة المذكورة.

وحيث ثبت التشابه بين (فعيل) و(فعول)، فقد خصوا (فعولاً) الذي بمعنى (فاعل) بتجريده من التاء الفارقة بين المؤنث والمذكر، وشركوا بينهما في لفظ المذكور فقالوا: رجل صبور وشكور، وامرأة صبور وشكور، ونظائرهما، وأما عدو وعدوة فشاذ، وعليه، فإن قصد بالتاء المبالغة لحقت المذكر والمؤنث، فيقال: رجل ملولة وامرأة ملولة.

و إن كان (فعول) في معنى (مفعول) لحقته التاء في المؤنث، مثل: حلوبة وركوبة.

فإذا تقرر هذا، ولا بد أن يتقرر عند من رغب في فقه اللغة وتبين أسرارها، فإننا نقول: (قريب) في الآية هو (فعيل) بمعنى (فاعل)، لا على معنى (قارب) بل بمعنى اسم الفاعل العام، فكان حقه بالتاء....

ولكنهم أجروه مجرى (فعيل) بمعنى (مفعول) فلم يلحقوه بها، كما جرى (فعيل) بمعنى (مفعول) مجرى (فعيل) بمعنى (فاعل) في إلحاقه التاء، فقالوا: خصلة حميدة وفعلة ذميمة (بالتاء) فحملوا (قريباً) على: امرأة قتيل وكف خضيب وعين كحيل؛ في عدم إلحاق (التاء) حملاً لكل من البابين على الآخر.

ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٨][(١)] فحمل (رميم)، وهي بمعنى (فاعل) على (امرأة قتيل) بابه.

وتعقب الشاهد ﴿وهي رميم﴾ بأنه على وفق قياس العربية، فإن العظام جمع (عظم) وهو مذكر، لكنه جمع جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز أن يراعى فيه تأنيث الجماعة، وباعتباره قال: ﴿وهي﴾ ولم يقل: (وهو)، ويراعى فيه معنى الواحد، وباعتباره قال: ﴿رميم﴾ كما يقال: (عظم رميم)، مع أن رميماً يطلق على جمع المذكر مفرداً وجمعاً، قال جرير:

**إلى المهلب جذ الله دابرهم أمسوا رميماً فلا أصل ولا طرف**[(٢)]

ثم إن الكلمة التي على زنة (فعيل) بمعنى (فاعل) قد تشبه بـ(فعيل) بمعنى (مفعول) فتمنع من التاء في المؤنث، مثل: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ومثل

---

(١) رميم: عظام بالية تالفة.

(٢) جذَّ: الجذُّ القطع المستأصل، وجذَّه: استأصله قتلاً، والجذَاذ: الحطام. ودابرهم: دبُر كل شيء: عقبه ومؤخره، وقطع الله دابرهم: أي آخر من بقي منهم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٥] أي: استؤصل آخرهم.

(نصير) بمعنى (ناصر). كما قد يشبهون (فعيلاً) بمعنى (مفعول) بـ (فعيل) بمعنى (فاعل) فيلحقونه التاء.

وقال **الألوسي**[١] بعدما ساق كثيراً من الأوجه: والذي أختار أن (فعيلاً) -هنا- بمعنى (فاعل) لا بمعنى (مفعول) كما زعم الكرماني؛ لما مرت الإشارة إليه.

ولأن الرحمة صفة ذات عند جمع، وصفات الذات سواء قلنا بعينيتها أو بغيريتها، أو بأنها: لا ولا - أي: لا عين الذات ولا غيرها- لا يحسن الإخبار عنها بأنها مقربة -اسم فاعل من قرب-. والقول بأن في ذلك ترغيباً في الإحسان حيث أشير إلى أنه كالفاعل، وقد أثر فيما لا يقبل التأثر، مما لا يكاد يسلم، وأنه قد حمل على (فعيل) بمعنى (مفعول) كما حمل على ذلك في خصوصية (قريب) في قول جرير:

**أتنفعك الحياة وأم عمرو قريب لا تزور ولا تزار؟**

وإنما لم يقل (قريبة) على الأصل، للإشارة لأرباب الأذهان السليمة إلى أنها قريبة جداً من المحسنين كما لا يخفى على المتأمل.

قال الألوسي متابعاً ذلك: واختار بعضهم تفسير الرحمة -هنا- بالإحسان؛ لمكان المحسنين ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾، ولعله يعتبر شاملاً للإحسان الدنيوي والأخروي، ووجه القرب -على ما قيل- وجود الأهلية بحسب الحكمة مع ارتفاع الموانع بالكلية.

وهذا ليس ببعيد، إذ فسرت الرحمة في حق الله تعالى بإرادة الإحسان أو الإحسان، فالأول - أي: الإرادة - يرجع إلى صفة ذات والثاني يرجع إلى صفة الفعل.

وقد فسر سعيد بن جبير ﷺ الرحمة بالثواب، والمتبادر منه الإحسان

(١) روح المعاني ٨/ ١٤٤.

الأخروي، ووجه القرب عليه-في هذا المعنى- بأن الإنسان في كل ساعة من الساعات في إدبار عن الدنيا وإقبال على الآخرة، وإذا كان كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة، فلا يكون بين المحسن والثواب في الآخرة إلا الموت، وكل آت قريب.

إن مجيء ﴿قريب﴾ دون (قريبة) في هذا السياق، وهو إخبار عن الرحمة، وهي مؤنثة بالتاء، فتح من المعاني والنفائس ما لم يكن يخطر ببال لو جاءت الكلمة (قريبة) على حسب الظاهر.

وحمل الرحمة على معنى الإحسان من باب تأويل المؤنث بمذكر موافق له في المعنى، كقول الشاعر:[1]

**أرى رجلاً منكم أسيفاً كأنما يضم إلى كشْحَيه كفاً مخضباً**[2]

فالكف مؤنثة، وتأويله عضو أو طرف، فذكَّر صفته، وكذلك تأويل (الرحمة) وهي مؤنثة بالإحسان، فيذكَّر خبرها، وتأويل الرحمة بالإحسان أولى من تأويل الكف بعضو؛ لوجهين، إذ فيه نظر إليها من حيث مقتضاها إياه، لا من حيث مطابقتها له، وقيل رقة في القلب تستدعي الإحسان والعطف، وهي -بهذا المعنى- مستحيلة في حق الله تعالى، وعليه أوِّلت الرحمة بإرادة الإحسان أو بالإحسان، بناء على صفة الذات في الإرادة، وصفة الفعل في الإحسان نفسه، ولفظ ﴿قريب﴾ في الآية

(١) الشاعر: هو الأعشى، كما في لسان العرب، مادة (خَضَبَ).

(٢) كشحيه: مثنى كشح، والكشح هو البطن أو الخصر، وما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي، ومن لدن السرة إلى المتن.
ذكر الشاعر الكف -وهي مؤنثة- على إرادة العضو، وكل ما غيِّر لونه فهو: مخضوب وخضيب، فيقال: كف خضيب، وخضب دمعه الحصى: بلَّها، من طريق الاستعارة أو إرادة المبالغة في البكاء. والخضاب: ما يخضب به من حناء، وأسيف: غاضب، والشيخ الفاني، والأسير، وسريع البكاء والحزن، والمبالغة في الحزن، وآسفه: أغضبه.

يقطر بهذا المعنى النفيس الذي ينضح بالإثبات مع التنزيه، ولأرجع إلى الوجهين المذكورين سابقاً، فأقول:

**أحدهما**: أن الرحمة معنى قائم بالراحم، والإحسان هو لون بر من الراحم بالمرحوم، وهو حظه من الراحم، والآية ترشح هذا الخط بتذكير (الخبر) على أن معنى القرب في البر من المحسنين أظهر منه في الرحمة.

**والوجه الثاني**: أن ملاحظة الإحسان بالرحمة الموصوفِ بالقرب من المحسنين هو في مقابلة الإحسان الذي صدر منهم وتحققوا به، وباعتبار المقابلة ازداد المعنى قوة واللفظ جزالة، ووقفنا على سر من أسرار التعبير القرآني الرصين العميق، ونضح (قريب) في الآية ليقول: إن إحسان الله قريب من أهل الإحسان، ويجلي ما ههنا قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٦٠].

إنه ذكّر لفظ ﴿قريب﴾ ليفهم منه أنه صفة المذكر، وهو الإحسان، فتفهم المقابلة المطلوبة.

ومثيل تأويل المؤنث - في لغة العرب - بالمذكر ما أنشده الفراء:

**وقائع في مضر تسعة وفي وائل كانت العاشرة**

وفيه: تأويل الوقائع[1] - وهي مؤنثة - بأيام الحرب المذكرة، فأنَّث العدد الجاري عليها، فقال: تسعة، ولولا التأويل لقال: تسع؛ إذ الوقائع مؤنثة، ومفردها كذلك، ولا يخفى ما يضيفه هذا التأويل من قوة نضح بها التذكير وخشونته.

وفي اللغة "التذكير أصل، والتأنيث فرع"، وحمل الأصل على الفرع إذا كان جائزاً، فلأن يجوز حمل الفرع على الأصل أولى، أي: تذكير المؤنث لإضافته إلى غير المؤنث، وأي حمل له دلالته البلاغية التي تظهر

(١) الوقائع: جمع وقيعة، وهي: الحرب والقتال والمعركة. لسان العرب.

بأدنى تأمل، فلا يلغي الضوابط اللغوية والقواعد الراسخة لهذه اللغة العبقرية، وعليه: إذا جاز تأويل المذكر بمؤنث، كما في قول الشاعر:

**يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت[1]؟**

حيث جعل الصوت بمعنى الصيحة، وهنا حمل أصل على فرع. ولولا اسم الإشارة (هذه) لما درينا أن المقصود من الصوت (الصيحة) لا مجرد الصوت، والصيحة تصويت بأقصى الطاقة، وفي التهذيب: الصياح: صوت كل شيء إذا اشتد، حتى إن الصيحة تطلق على العذاب، ولئن ساغ حمل أصل -وهو الصوت- على فرع وهو الصيحة، ساغ - من باب أولى وأحرى - وجاز تأويل مؤنث بمذكر، لكونه حمل فرع على أصل، وما ذكرناه من غرض الحمل يسوغ، وإساغته-بعامة- لمعنى وفائدة يتضمنها التأويل، كما في الرحمة والإحسان.

ولعل بيت القصيد في كل ما عرضناه أن الباحث تتراءى له أنوار أسرار الكلمات القرآنية، إن لم يكن-فيه-زيغ متأصل، ومناكفة للحق معتقدة مهما ظهر وتألق الحق، وإلا فيبدو في صورة (بجع) ينعى على النسر انطلاقه، وتغطيته لمساحات واسعة من السماء، ويعتبر البجع ذلك تحليقاً غير مفهوم المرمى والغاية، يتعاصى عليه فهمه، وغفل (البجع) عن أن المشكلة ليست في التحليق في ذاته، بل في ضعف البصر عن متابعته، وقد عاب أحدهم على أبي تمام معانيه، واعتبرها غامضة، فقال له: لم لا تقول ما يفهم؟! فأجابه أبو تمام: ولم لا تفهم ما يقال؟ خصوصاً إذا عرفنا أن اللغة العربية ليست حروفاً جامدة-كما هي في سمع بعضهم- بل حياة نابضة تظهر في أسلوب وأداء وكلمات، وعطاء لا يجاريه المرهق،

---

(١) المزجي: الدافع لدابته دفعاً رفيقاً، والريح تزجي السحاب: تسوقه سوقاً رفيقاً. والمطية: الناقة يركب مطاها، أي: ظهرها، أو: يمطى بها في السير، أي: يمدُّ. مطوت بالقوم: إذا مددت بهم في السير.

لأنه إن جاراه أصيب بسكتة في دماغ الفهم، وتغلق دونه وبها أبواب المعاني العراض.

إن القرآن الكريم كتاب هداية، جاءت أساليبه ترسم بالحرف والكلمة والجملة والظلال مجالات الحياة عقيدة وشريعة، واختيار الكلمة فيه دون غيرها يحقق الأبعاد التي جاء ليجَليَها، فالرحمة لا تنفك عن إرادة الإحسان، وهي ليست مشاعر في الصدر لا أثر لها، بل هي مستلزمة للإحسان ولإرادته استلزام الخاص للعام، والاعتراض على هذا اعتراض من باب التعنت والمناكدة، والرحمة في حق الله تعالى نثبتها كما أثبتها لنفسه منزهة عن خواص صفات المخلوق.

ثم باب حذف المضاف-في اللغة- وإقامة المضاف إليه مقامه على الالتفات إلى المحذوف هو الآخر مطروق، فكأنه قال: «إن مكان الرحمة قريب» ثم حذف (المكان) وأعطى الرحمة إعرابه وتذكيره، على أن المرحوم لا يعرو عن مكان بحال، ونظيره ما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

**يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل**[1]

فبردى مؤنث، والفعل (يصفق) ضميره يعود على مذكر، وهو هناك (نهر) أو (ماء).

وقد أخذ الرسول ﷺ ذهباً وحريراً بيده فقال: "هذان حرام على ذكور أمتي"[2]، فحرام بالإفراد، والمخبر عنه مثنى فكأنه قال: "استعمال

(١) البريض: واد، والرحيق: الخمر، والرحيق السلسل: اللين الذي إذا شرب تسلسل في الحلق، وكان سهل المدخل، والسلسل: الماء العذب السهل السلس في الحلق لعذوبته وصفائه أو لكونه بارداً.

(٢) في مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه من مسند الإمام أحمد برقم ٧٥٢؛ وفي سنن البيهقي الكبرى برقم ٤٢٥؛ وفي مجمع الزوائد برقم ٨٥٦٨ وفيه: "حلال للإناث".

هذين حرام". وهذا كثير في لغة العرب، على أن ثمة ضوابط في هذا الباب، إذ لا يجوز حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه باطراد، وإنما يضمر ويقدر حيث يتعين، وفرسان اللغة درّاكون لهذا.

وفي الاستعمال السليم الشائع تقول: أكلت الشاة أي: لحمها، وأكل فلان كبد فلان، إذا أكل ماله، أي: ثمرة كبده، ثم إن المتكلم حين يحذف المضاف، ويقيم المضاف إليه مكانه إنما يرمي إلى أمر ربما لا يتحقق دون ذلك، والحديث الشريف في الذهب والحرير يجلي سراً بديعاً من أسرار الحذف، ولتبينه نسأل: لم أفرد الخبر (حرام) في الحديث، ولم يثنه؟ والسر البديع فيه: هو التنبيه والإشارة إلى أن كل واحد من الحرير والذهب بمفرده موصوف بأنه (حرام)، ولو ثنى الخبر لم يكن فيه تنبيه على هذا المعنى، فلهذا أفرد الخبر، فكأنه قال: "وكل واحد من هذين حرام" فدل إفراد الخبر على إرادة الإخبار عن كل واحد بمفرده، وهذا من روائع لغتنا التي ما تحارب إلا لأنها لغة القرآن الكريم.

وثمة باب اكتساب المضاف حكم المضاف إليه إذا كان صالحاً للحذف، والاستغناء عنه بالثاني، ومنه قول الشاعر:

**لما أتى خبرُ الزبير تواضعت  سور المدينة والجبال الخشع**

فأخذ لفظ (سور) من (المدينة) ما سوغ (التاء) في (تواضعت).

وقال آخر:

**بغي النفوس معيدة نعماءها[1]  نقماً وإن عمهت وطال غرورها**

فبغي مضاف إلى النفوس، والخبر (معيدة) كما ترى.

---

(١) بغي النفوس: البغي: الاستطالة على الناس، والعدول عن الحق، والظلم وطلب الأذية والحسد. والعمه: التردد في الضلال والتحير في منازعة أو طريق، قال ثعلب: هو ألا يعرف الحجة. وأرض عمهاء: لا أعلام بها.

ومنه قول الشاعر:

**وتشرق بالأمر الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم**[١]

أنث (صدر) لإضافته إلى (القناة)، فقال: (شرقت).

ومنه قول النابغة:

**حتى استغاث بأهل الملح ضاحية يركضن قد قلقت عقد الأطانيب**[٢]

ومنه قول لبيد:

**فمضى وقدَمها وكانت عادةً منه إذا هي عرَدت أقدامها**[٣]

ويقال: «ذهبت بعض أصابعه»، ويقوي ما ذكرنا شدة اتصال المضاف بالمضاف إليه، وكونه جزأه حقيقة، فكأنه -في القول- قال: "ذهبت أصبع أو أصبعان من أصابعه".

من كل ما تقدم يكون الأصل في الآية الكريمة (إن الله قريب من المحسنين)؛ أي: إحسانه سابق على إحسانهم، إذ قربه نعمة متصلة وأنس، بل الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، واستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود، وخبر المحذوف ﴿قريب﴾ وخبر الموجود (قريبة)، وسوغ ذلك بل محضه أن لا لبس في المعنى بل هو ظاهر، وهو مسلك لطيف

---

(١) تشرق: شرق الرجل بالماء: غص به فبقي في حلقه لايسيغه، وتشرق: تغص، والقناة: الرمح، وإذاعة الأمر: إشاعته ونشره وإفشاؤه إن كان سراً وإظهاره.

(٢) الأطانيب: جمع إطنابة، سير يشد في طرف الحزام ليكون عوناً لسيره، وسير الحزام المعقود إلى الإبزيم، وعقد الأطانيب: الحزم إذا استرخت. ويقال: خيل أطانيب: يتبع بعضها بعضاً.

(٣) عرَدت أقدامها: أنث الأقدام لتعلقه بها كقوله:

**مشين كما اهتزت رماح تسفهت أعاليها مرُّ الرماح النواسم**

وعردت: عرد الناب: إذا اشتد وانتصب، وخرج كله، وكل شيء منتصب شديد، وعرَد: غلظ، والتعريد: سرعة الذهاب في الهزيمة، وترك القصد مع الهزيمة.

المنزع دقيق على الأفهام، وهو من أسرار الأسلوب القرآني والذي ينبغي أن يعبر عنه به أن الرحمة صفة من صفات الرب سبحانه، والصفة قائمة بالموصوف لا تفارق الموصوف، فإذا كانت قريبة من المحسنين، فالموصوف -تبارك وتعالى- أولى بالقرب من رحمته تبعاً لقربه من المحسنين، والله قريب من أهل الإحسان بإثابته، ومن أهل سؤاله بإجابته، والإحسان يقتضي قرب الرب من عبده كما أن العبد قرب من ربه بالإحسان، وأنه من تقرب من الله-سبحانه- شبراً تقرب منه ذراعاً، وحذف التاء من ﴿قريب﴾ من وراء كل هذا العطاء، وصدق الله تعالى وهو يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٢].

أجل إن حذف (التاء) استلزم القربين، قربه وقرب رحمته، ولو أنث (قريباً) بالتاء لما دل عليهما، لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته، والأعم لا يستلزم الأخص، بخلاف قربه، فإنه لما كان أخصَّ استلزم الأعم وهو قرب رحمته، والإخبار عن قرب الله تعالى من المحسنين كاف في الإخبار عن قرب رحمته منهم، ولما كان ثمة ألوان من القرب ذكرت (الرحمة) ههنا لتخص هذا النوع دون سواه، والخلاصة المختارة -وهي أليق ما قيل في هذا الشأن- أن قربه -تعالى- من المحسنين، وقرب رحمته منهم متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر في الواقع، فإذا كانت رحمته قريبة منهم، فهو أيضاً قريب منهم، وإذا كان المعنيان متلازمين صح إرادة كل واحد منهما، فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين -مما دل عليه تذكير قريب- من التحريض على الإحسان واستدعائه من النفوس وترغيبها فيه غايته، وهو حظها وأشرف ما تحققه وأجلُّه على الإطلاق. وهو أفضل عطاء أعطيه العبد، فقربه -سبحانه- من العبد غاية الأماني ونهاية الآمال، وقرة العين، وحياة القلوب، وسعادة العبد، فكان في العدول عن (قريبة) إلى (قريب) من استدعاء الإحسان وترغيب النفوس

فيه ما لا يتخلف عنه بعده إلا من غلبت عليه شقوته، وشتان بين من تحرضه العطية ومن يشده حب القرب من المعطي، على أنه حين جاء كتاب الله تعالى على ذكر (الرحمة) دون استدعاء للإحسان، قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٦].

وكذلك جاء قول الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى: " إن رحمتي سبقت غضبي "[(١)].

ثم اللغة - كما مرَّ ونعيده للتوكيد - فرقت بين قرب النسب والقرابة وقرب المكان، فالأول بالتاء عند التأنيث، نقول: "فلانة قريبة لي"، والثاني دون التاء، نقول: "جلست فلانة قريباً مني"، وبهذا المسلك الذي اختاره الفراء وجماعة في (قريب)، يكون ﴿قريب﴾ في الآية دالاً على الظرفية. ومنه في الشعر قول امرئ القيس:

**له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا**

وقول جرير:

**أتنفعك الحياة وأم عمرو قريب لا تزور ولا تزار؟**

وقال آخر في كون ما جاء عن (فعيل ومفعول) مطلقاً يستوي فيه المذكر والمؤنث:

**دعَوْن الهوى ثم ارتهنَّ قلوبنا بأسهم أعداء وهنَّ صديق[(٢)]**

وبعد هذه الجولة في كلمة ﴿قريب﴾ التي رآها (أكمه) اللغة كلمة بعيدة، أذكر أقوالاً لأساطين اللغة فيها.

---

(١) رواه البخاري في باب (وكان عرشه) برقم ٧٢٥٦، عن أبي هريرة، وفي باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ﴾، برقم ٧٢٨٧، وبرقم ٧٣٨٨، باب قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١﴾؛ ورواه الإمام مسلم، باب رحمة الله تعالى، برقم ٦٩١٩؛ وكذا رواه الإمام أحمد في المسند؛ وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم.

(٢) ارتهن: الرهن ما وضع عند الإنسان مما ينوب مناب ما أخذ منه، وارتهنَّ: صرن رهائن، واحدتها: رهينة، بمعنى: مرهونة.

قال ابن كثير: قال ﴿قريب﴾ ولم يقل (قريبة) لأنه ضمّن الرحمة معنى الثواب، أو: لأنها مضاف إلى الله تعالى فلهذا قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. ولما كان القرب يختلف في معناه؛ كقرب العناية والإنعام والحفظ والمراقبة، جاء بالرحمة نصاً على أن الصفة لا تنفك عن الموصوف، وهنا لون تعرفٍ إلى (القريب) قرباً يليق بعظمته من خلال رحمته، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦/٢]، ووسيلة القرب -ههنا-واستدراره الإحسان.

وقال القرطبي: في قوله ﴿قريب﴾ دون (قريبة) سبعة أوجه: الرحمة والرحم واحد بمعنى العفو والغفران، وهذا من عطاء القرآن، واختار الوجهَ المذكور النحَّاسُ، وقاله الزجاج. وقال النضر بن شميل: الرحمة مصدر، وحق المصدر التذكير، مثل: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٥] لأن الموعظة بمعنى الوعظ، وهذا قريب من قول الزجاج، وأراد بالرحمة (الإحسان) والتقدير يتناغم مع قوله ﴿المحسنين﴾ ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقياً جاء فيه التذكير، ذكره الجوهري، وقال الأخفش: الرحمة أراد بها هنا (المطر - الغيث) حسب السياق، ولا شك أن الغيث من مظاهر الرحمة الكبرى الأساس، ويجوز أن يذكر كما يذكر بعض المؤنث، وأنشد[1]:

**فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها[2]**

ونعيد ما ذهب إليه الفراء، وهو: إذا كان القريب في معنى المسافة

---

(١) الشاعر: هو عامر بن جوين الطائي.

(٢) المزنة: واحدة المزن، وهو السحاب ذو الماء، أو المزنة: السحابة البيضاء، والأول الموافق للسياق، وودقت: دنت واتسعت وأخذت بالقطر. والودق: المطر كله شديده وهينه، وأبقلت: أنبتت البقل. لم يقل: أبقلت، لأن تأنيث الأرض غير حقيقي.

فيذكر ويؤنث، وفي معنى النسب يؤنث بلا اختلاف بينهم، بناءً على أن هذا القرب ثمرة للرحم. تقول في النسب "قريبة فلان" وفي غير النسب يجوز "دارك منا قريب وفلانة منا قريب"، وكذا في كلام العرب: قال امرؤ القيس:

**له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا**

وقال الطبري: إن ثواب الله الذي وعد المحسنين قريب، وذلك هو رحمته: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٧].

والقرب هنا - وهذا تابع للطبري - يعني: أنه ليس بينهم وبين ثوابه إلا أن تفارق الأرواح الأجساد، (فقريب) خبر من الرحمة، أريد به القرب في الزمن، لا في النسب، والأوقات بهذا المعنى إذا وقعت أخباراً للأسماء أجرتها العرب مجرى الحال، فوحدتها مع الواحد والاثنين والجمع، وذكرتها مع المؤنث، فقالوا: كرامة الله بعيد من فلان، وقريب من فلان، والهندات قريب مني، والهندان قريب، أي: في مكان قريب، قال عروة بن الورد:

**عشية لا عفراء منك قريبة فتدنو ولا عفراء منك بعيد**

فأنث (قريبة) على معنى النسب، وذكَّر (بعيداً) على معنى المكان، إذ لو كان قريباً من القرابة من النسب لم يكن مع المؤنث إلا مؤنثاً، والعرب تقول: "ريح خريق وملحفة جديد وشاة سديس"[1].

(١) خريق: شديدة أو لينة سهلة. سديس: أتت عليها السنة السادسة.

## ملاحظة.....

في الرسم القرآني من (تأملات لمحمد شملول)[١] بتعديل غير مخل: وردت كلمة (رحمة) في القرآن الكريم **٧٢** مرة بالتاء المربوطة رسماً، ووردت بالتاء المفتوحة - أو المبسوطة - **٧**مرات.

مثالها مربوطة قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩].

ومثال التاء المفتوحة، الآية التي نحن بصدد معرفة سر (قريب) فيها دون (قريبة).

وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٢].

يلاحظ: أن التاء جاءت مفتوحة في السور التي تبدأ بالحروف المقطعة، وأن ثمة سبباً لاختلاف رسم التاء مربوطة في موطن، ومفتوحة في آخر.

وهذا ليس ببعيد عن رسم كلمة (نعمة) مربوطة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/ ٥٣]، وكلمة ﴿نعمت﴾ مفتوحة في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣].

فالأولى تنضح بأن مابكم- أيها الناس- مما يطلق عليه اسم (نعمة) مهما قلت فمن الله تعالى، وليس ثمة مخلوق يقدر على الإنعام بها، فهو- سبحانه- المتفرد بالإنعام في كل صوره.

أما الثانية فتحمل معنى النعم المفتوحة التي لا يمكن إحصاؤها[٢].

وهذه تندلق من أبواب العطاء على ساحات المؤمنين.

---

(١) ص ٤٤ / شملول.

(٢) ص ٤٨ / شملول.